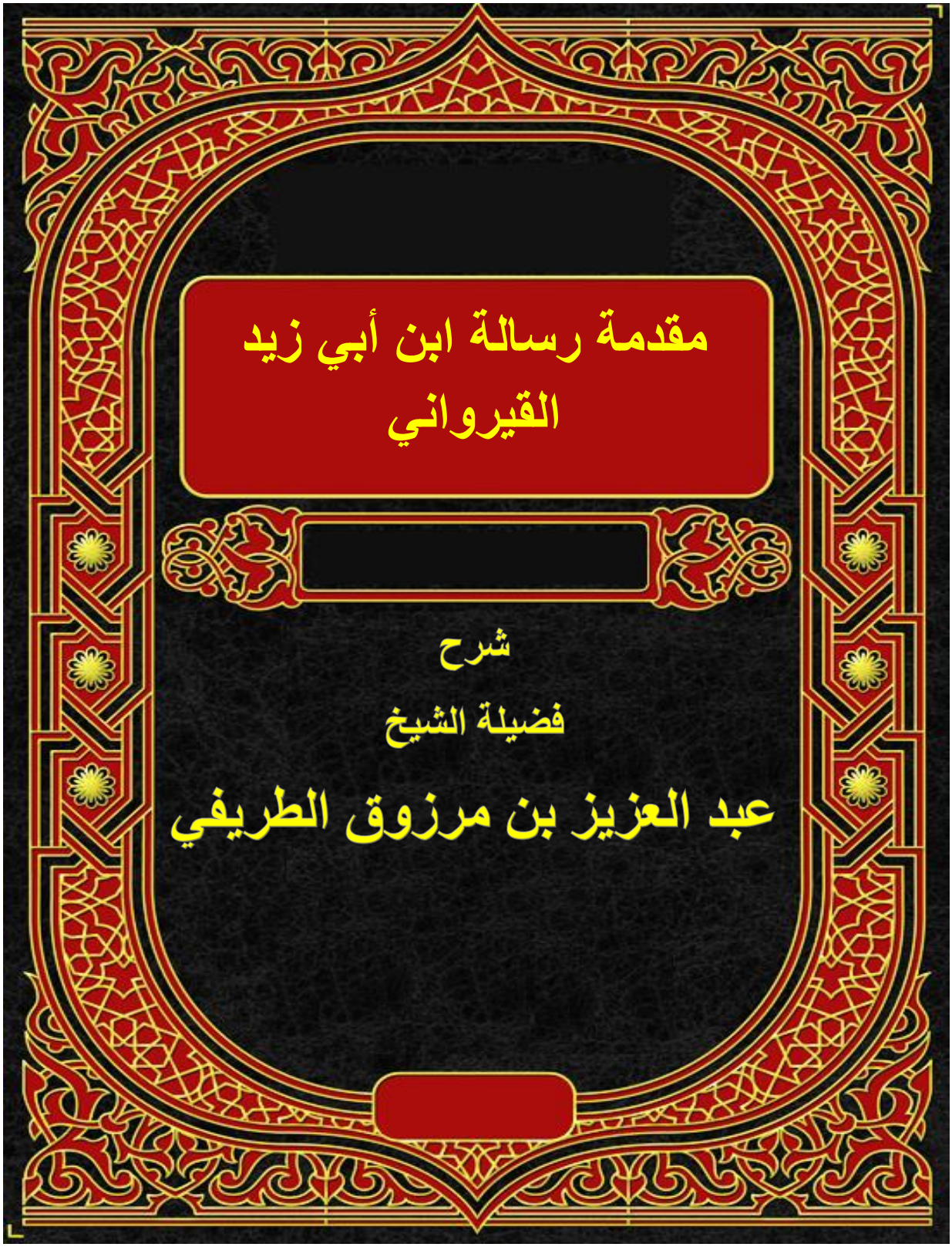
مقدمة رسالة ابن أبي زيد القيرواني
شرح
فضيلة الشيخ
عبد العزيز بن مرزوق الطريفي

تفريغ الدرس الأول

الرسالة في فقه الإمام مالك لابن أبي زيد القيرواني صدرها المؤلف بمقدمة عقدية تعتبر من أنفس العقائد التي دونها المالكية، حيث اقتفى فيها أثر السلف من الصحابة والتابعين، وبعد أن حث في مستهلها على تلقين الصغار المعتقد الصحيح وأصول الديانة افتتح عقيدته بتقرير حقيقة الإيمان، وتعظيم الله والثناء عليه بما هو له أهل.

التعريف بالمقدمة العقدية لرسالة ابن أبي زيد القيرواني وطريقة تصنيفها

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد الله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا مُحَمَّد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

ففي عدة مجالس سنتكلم بإذن الله عز وجل على هذه الرسالة المختصرة التي جعلها المصنف رحمه الله مقدمة لكتابه الرسالة, وهي في فقه الإمام مالك رحمه الله, ومعلوم أن هذا الإمام هو من أئمة المالكية, ومن أجلتهم وصفوتهم، ومن متقدميهم ومحرري مذهب الإمام مالك رحمه الله، وعقيدته هذه من أنفس العقائد التي دونها المالكيون، جرى بمجموعها مقتفياً آثار السالفين من الصحابة والتابعين وأتباعهم، وهذا من توفيق الله عز وجل وتسديده.

وكذلك أيضاً فيه إشارة إلى أن عقائد الأولين في القرون الأولى كانت تمتثل عقيدة السلف الصالح الذي يسير على منهاج الكتاب والسنة، وما جرى عليه أهل الصدر الأول من الصحابة والتابعين وأتباعهم, وهم خير القرون, الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: (خير الناس قرني, ثم الذين يلونهم, ثم الذين يلونهم)، وهذا الكتاب إنما هو مُجتزأ من الرسالة, ولأهميته اعتنى به العلماء عناية منفردة منفصلة عن الرسالة الفقهية، فكانت هذه المقدمة تجري على طريقة الأوائل في جمع مسائل أصول الدين مع فروعه.

طريقة الأقدمين في التصنيف

وذلك أن الأئمة الأوائل عليهم رحمة الله الذين كانوا يصنفون في الأحكام كانوا يجمعون مسائل العقائد مع مسائل الفقه، وهذه طريقة الذين صنفوا في جمع السنة كالذين صنفوا في الكتب الستة وغيرها؛ كالبخاري و مسلم وأصحاب السنن الأربع

وغيرهم، يضعون كتباً للإيمان, وللتوحيد, وللوحي, ويُضمِّنون ذلك أموراً من الفقه، وذلك أن الفقه والأحكام في اصطلاح الصدر الأول كانوا يريدون به عموم مسائل الدين، ولهذا صنف الإشبيلي رحمه الله كتابه الأحكام، وجمع فيه أحكام الدين ما يتعلق بأمور العقائد وكذلك ما يتعلق بأحكام الفقه، وكان العلماء عليهم رحمة الله يطلقون الفقه على جميع علوم الشريعة، ما يتعلق منها بأصول الدين وكذلك ما يتعلق بفروعه، ولهذا كتاب الفقه الأكبر المراد به أمور العقائد، والنبي ﷺ حينما قال كما جاء في الصحيح: (من يرد الله به خيراً يفقه في الدين)، فإن المراد بذلك سائر أنواع الفقه مما يتعلق بمسائل التوحيد ومسائل الأحكام من الحلال والحرام, وكذلك أيضاً أمور الآداب، وما زال العلماء على ذلك حتى توسع العلماء في تصنيف علوم الدين إلى أنواع؛ فجاءت مسائل العقائد والتوحيد، ومسائل الحلال والحرام, والتي أفردت بالفقه, ومسائل الآداب والسلوك، ومسائل الأذكار، عمل اليوم والليلة، جاء هذا التفصيل وإفراد مسائل الدين على سبيل التجزئة, وهو نوع من تقريب العلوم لا تفريق أوصاله، ولهذا ينبغي لطالب العلم أن يعلم أن مسائل الدين وأحكام الشريعة مترابطة فيما بينها وتتلازم من جهة تداخلها، فيجد في مسائل الأذكار تعلقاً بمسائل التوحيد، ويجد أيضاً في أمور العبادات تعلقاً بمسائل العقائد, ومن العقائد ما يدخله العلماء في مسائل الفقه, وكذلك العكس، وربما أدخل بعض العلماء بعض فرعيات الدين في مسائل العقائد؛ لأنها هي الفاصل والفارق بينهم وبين أهل البدع، مثل: المسح على الخفين في مسائل العقائد لأنها فارق بين أهل السنة والرافضة, وغير ذلك من المسائل الفرعية التي يدرجها العلماء من جهة الأصل في أبواب الفقه.

ضابط الأصول والفروع ومراعاتها في التصنيف

وهذا التقسيم هو تقسيم حسن إذا عُلمت الغاية منه، وأنه ليس المراد من ذلك التهوين من باب دون باب وتقديم باب من جميع الوجوه على باب آخر، وإلا فيوجد من مسائل العقائد ما هي فرعيات وجزئيات, ويوجد من الفروع ما هي أصول كليات؛ كمثل أركان الإسلام؛ كالصلاة والصيام والزكاة والحج، ولهذا نجد التأكيد على الصلاة في الشريعة متظافر؛ وذلك لأهميتها وجلالة قدرها، بل جاء في النصوص الكثيرة عن النبي ﷺ وصف تاركها بالكفر، كما جاء في مسلم من حديث جابر بن عبد الله : (بين الرجل وبين الشرك ترك الصلاة)، وكذلك أيضاً ما جاء في حديث بريدة في المسند والسنن: (العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة, فمن تركها فقد كفر)، وغير ذلك من التأكيدات، وهذه تدرج عند العلماء في أبواب الفروع, ونجد أيضاً في أبواب مسائل العقائد من المسائل الجزئية اليسيرة من دقائق الأسماء والصفات ما لم يؤكد عليها الشارع، وتجد كثيراً من العلماء لا ينبهون عليها, باعتبار أن الشارع ما أكد عليها وأكثر من سياقها، فنجد أن أصول العقائد من جهة الأصل هي أولى بالاهتمام من الفروع، ونجد أن من الفروع ما هو أولى بالاهتمام من بعض جزئيات مسائل العقائد؛ كفرعيات الأسماء والصفات, لا أصولها, فإن هذه يفوقها ما يتعلق ببعض أصول الفروع, وغير ذلك، لهذا نجد أن ثمة تداخلا ومغالبة بين أهمية هذه المسائل المتعلقة بأحكام الدين، والعلماء الأوائل كانوا ينظرون إلى أحكام الدين على أنها جزء واحد لا يتجزأ، فتجد من يتكلم في مسائل العقيدة ويدرج فيها أمور الفقه وربما الآداب والسلوك والأذكار وغير ذلك، والتوسع في التصنيف أوغل فيه المتأخرون كثيراً خصوصاً في الزمن المتأخر, حتى جزئت كثير من مسائل الفروع إلى جزئيات دقيقة، وربما بلغ في بعض الأزمنة إلى حد ... ولهذا كان من السلف الصالح من ينكر التوسع في تجزئة مسائل الدين، ولهذا يروى عن علي بن أبي طالب أنه

قال: العلم نقطة كبرها الجهال، يعني: توسعوا به وجزءوه أجزاء متعددة حتى ظُن أنه يجب على الإنسان أن يتعلمه بتوسعه, حتى ربما خلط الناس بين مراتب العلم فأخذوه من أدناه وتركوا أعلاه، وربما كثير من الناس يحرص على دعوة الناس بالأدنى ويترك الأعلى وهو المتأكد؛ لأن علم الشريعة أصبح يوصف بعلم الشريعة مع كثرة أجزائه وأنواعه، ولهذا نجد السلف الصالح لما اهتموا بالأصول واهتموا أيضاً بالفرعيات وغرسها في نفوس الناس وجدوا الناس يذعنون للجزئيات، ولما اهتم المتأخرون بالجزئيات وجدوهم لا يهتمون بالأصليات، وهذا أمر مشاهد في كثير من بلدان المسلمين.

الابتداء والاستهلال

المصنف رحمه الله في رسالته هذه جعل لها مقدمة وهي التي بين أيدينا، وسنقرؤها ونعلق على ما تيسر من مسائل العقيدة وشيء مما يتصل بها بما أمكن بإذن الله عز وجل.

هي: رسالة مختصرة جليلة، حرية بالحفظ والفهم, وحرية أيضاً بالتعليق والتهميش, والتدليل أيضاً على مسائلها من الكتاب والسنة وأقوال السالفين من الصحابة والتابعين، وهذه العقيدة أيضاً حرية بأن يعتني طلاب العلم بحفظها, ونشرها على سبيل الانفراد في أوساط طلاب العلم، وهي من أدق ما كتبه المالكيون في أبواب العقائد.

الابتداء بالحمدلة

قال أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني رحمه الله: [الحمد لله الذي ابتدأ الإنسان بنعمته، وصوره في الأرحام بحكمته].

قوله: (الحمد لله) ابتدأ المصنف رحمه الله كتابه هذا بالحمدلة, وهي: الحمد لله رب العالمين، فقال: (الحمد لله الذي ابتدأ الإنسان بنعمته), وذلك اقتداء بهدي النبي ﷺ, ومعلوم أن البداءة بذكر الله عز وجل في المكاتبات هو هدي النبي ﷺ الذي حث عليه وحظ وأرشد الناس إليه, وهذا جاء فيه عن النبي ﷺ أحاديث كثر، منها عملية كما جاء في حديث عبد الله بن عباس (لما كتب النبي ﷺ قال: بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله)، وكان النبي ﷺ يفتتح خطبه كذلك, بذكر الله عز وجل كما جاء عنه في حديث أبي هريرة وغيره, وقد رواه ... في الأربعين وكذلك الخطيب أن النبي ﷺ قال: (كل أمر لا يُبدأ فيه بذكر الله)، وجاء في رواية: (بالحمد لله)، وجاء في رواية: (ببسم الله فهو أبتر, أو أقطع, أو أجذم)، على روايات مختلفة, أمثلها وأقربها إلى الصحة هو الحمد لله, ثم يليها بعد ذلك بسم الله, ثم أضعفها بذكر الله، والحديث ضعيف جاء من طرق متعددة, والصواب فيه الإرسال، وقد جاء من حديث الوليد بن مسلم عن الأوزاعي عن ابن شهاب الزهري , وعلى كل نقول: يكفي في ذلك ما جاء عن رسول الله ﷺ من أنه كان يفعل ذلك عملاً، ولهذا نقول: إن ذكر الله عز وجل في المكاتبات على نوعين:

ذكر الله في المكاتبات

النوع الأول: هي الرسائل التي تكون بين الأفراد, والأفضل فيها أن يُبتدأ بالبسملة لا بالحمدلة, كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يكتب إلى أمراء القبائل, وإلى ملوك البلدان؛ كما كتب عليه الصلاة والسلام إلى كسرى وقيصر، وكتب إلى ملك دومة الجندل وغيرهم، فكان يكتب: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، من مُحَمَّد بن عبد الله)، ولا يبتدئ بالحمدلة؛ لأن البسملة في ذلك أفضل والاكتفاء بها أقرب إلى الصواب.

النوع الثاني: المكاتبات التي تشابه الخطب؛ وذلك كالمؤلفات والرسائل التي يصنفها الإنسان, فهي شبيهة بخطبة الإنسان يوم الجمعة ونحو ذلك, والأفضل في هذه أن يبتدئها الإنسان بالحمدلة لا بالبسملة؛ كأن يقول الإنسان الحمد الله رب العالمين، والصلاة السلام على نبينا مُحَمَّد, أو يبتدئ بخطبة الحاجة كما كان النبي ﷺ يبتدئ بها، ولهذا نجد الأئمة عليهم رحمة الله يبتدئون المصنفات بذلك، ولهم مناهج في هذا فمنهم من يبتدئ المصنفات بمقدمات يضعونها لكتبهم, ومنهم من يكتفي ببسم الله الرحمن الرحيم, كالإمام البخاري رحمه الله فإنه ابتدأ كتابه بالبسملة ثم شرع في الكتاب, ولم يجعل له مقدمة، ومنهم من وضع مقدمة لكتابه كالإمام مسلم رحمه الله، ومنهج البخاري رحمه الله لعله أراد به أن هذا وحي معظم, وهو قول النبي ﷺ, وهو ما ينبغي أن يبتدئ به, وكأنه أراد أن كلام النبي ﷺ ينبغي ألا يقدم له بأقوال الرجال وإنما يفتتح ببسملة ثم يُبدأ بالوحي؛ كحال القرآن, حيث يبتدئ الإنسان بالبسملة ثم يدخل إليه وهو أشرف وأعظم كلام, فلا يبتدئ الإنسان حال تلاوته بخطبة أو نحو ذلك، ولهذا ابتدأ المصنف عليه رحمة الله تعالى هذه الرسالة بالحمدلة, فقال: (الحمد الله).

ابتداء الإنسان بنعمة الله

وقول المصنف رحمه الله: (الذي ابتدأ الإنسان بنعمته)، يعني: أن الله عز وجل يعطي الإنسان من غير سؤال, وهو الذي تكفل برزق العباد، والله جل وعلا رب العباد يرزقهم سبحانه وتعالى من غير سؤال، فيعطي الإنسان بسؤال سواء كان كافراً أو غير كافر ويعطيه بغير سؤال، إذاً فهو رب العباد, ومعنى الربوبية: أن الله عز وجل يتكفل بالرزق, وبهذا نعلم أن رزق الله لعباده لا يعني به إكراماً لأحد على غيره، فالله يرزق البهائم من بهيمة الأنعام والطير وغير ذلك كما يرزق الإنسان, ويرزق الإنسان كما يرزق البهائم، ولهذا لم تكن الدنيا من جهة زيادتها أو نقصانها معياراً للخير, وإلا لكان زمن النبي ﷺ أكثر الأزمنة إغداقاً بالرزق وإكثاراً للخير مما يأتي بعده من العصور, وإنما هي أشياء قدرية, وبهذا نعلم أن الله عز وجل يعطي الدنيا الكافر وغير الكافر, والذي يحتج بهذا الأمر فيقول: لماذا يعطي الله عز وجل الكافر وهو يكفر به؟ ولماذا يرزق الله عز وجل الكافر وهو يعتدي عليه أو يلحد به, فينفي وجود الله أو ربما سبه وتعدى عليه سبحانه وتعالى؟ نقول: إن الله عز وجل وصف نفسه بأنه خير الرازقين، ومعنى خير الرازقين أي: أن الله عز وجل يعطي، ولا يمنع لأجل التعدي عليه إلا من يتألم بالتعدي أو بالضر؛ لأن الإنسان إنما يحبس الرزق والعطية عمن آذاه لأنه يتأذى من تلك الأذية, أما إذا كان لا يتأذى فإنه لا يكترث لذلك، وعليه فالأمر يرجع فيه إلى ربوبية الله سبحانه وتعالى لعباده، ولأن الله عز وجل أوجد الإنسان وخلقه ولم يستأذن أحداً سبحانه وتعالى

بخلقه, فالذي خُلق من غير إذن في أمره لا يستأذن في التشريع له؛ لأن خلقه أعظم عند الله عز وجل, فابتدأ الله عز وجل الإنسان بخلقه, وابتدأه سبحانه وتعالى بنعمته، ونعم الله عز وجل متعددة وأعلاها الإسلام, ويليها بعد ذلك ما يرزق الله عز وجل العبد من الرزق الحلال في أمر الدنيا.

تصوير الإنسان في الأرحام بحكمة الله

قوله: (وصوره في الأرحام بحكمته)، يعني: أن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق لحكمة ولغاية, وخلقهم أطواراً ليعلم الإنسان أصل نشأته فيعلم نهايته، ويعلم أيضاً طريقة إحيائه بعد ذلك، فالله عز وجل يعيدهم كما أنشأهم أول مرة، يعني: على سبيل الأطوار، فمن عرف بدايته عرف نهايته، فالله عز وجل خلق الناس في أرحامهم وصورهم سبحانه وتعالى، كما قال: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ﴾ [الأعراف:11]، فالله عز وجل خلق الإنسان ثم صوره، ومن العلماء من يقول: إن ((ثُمَّ)) هنا لا تفيد الترتيب الفعلي وإنما تفيد ترتيباً ذِكرياً، ويستدلون على ذلك بأن (ثم) كما تفيد عند العرب الترتيب الفعلي فإنها تفيد في بعض الأحيان ترتيباً ذكرياً ويستدلون بهذه الآية أيضاً, وبقول الشاعر:

قل لمن ساد ثم ساد أبوه ثم قد ساد قبل ذلك جده

قالوا: فالمراد بثم ترتيب الذكر لا ترتيب الفعل.

رفق الله بالإنسان وتيسيره له الرزق

قال المصنف رحمه الله: [وأبرزه إلى رفقه وما يسره له من رزقه، وعلمه ما لم يكن يعلم، وكان فضل الله عليه عظيماً].

قوله: (وأبرزه إلى رفقه وما يسره له من رزقه)، أي: أن الله سبحانه وتعالى أراد بالإنسان خيراً، وأنه ما أوجده ليشق عليه, وإنما أراد به اليسرى, وهداه ويسر له السبيل, وكما جعل الله عز وجل للإنسان قدمين يمشي بهما هداه الله جل وعلا إلى النجدين, وجعل الله عز وجل له عينين, وجعل له لساناً وشفتين, يهتدي بها ويميز طريق الخير من طريق الشر, فيعرف الحق من غيره, فإذا وقع في ضر فبما كسبت يمينه وبما فرط في أمر الله سبحانه وتعالى، ولهذا نقول: إن ما يقع للإنسان من ألم أو ضر أو بلاء فهو بما كسبت يمينه في مخالفة أمر الله جل وعلا, فالله عز وجل جعل للإنسان أمرين يهتدي بهما: أولهما: نور الوحي وهداه، وثانيهما: العقل, فبالعقل يعرف الأصل من الخير في الدنيا, وبالوحي يعرف الخيرين وأظهرهما أن يتعرف الإنسان على ربه جل وعلا كما يريد الله سبحانه وتعالى, ولهذا نقول: إن العقل مع الوحي كحال البصر مع النور، فالوحي نور والبصر يدرك به الإنسان ويرى، فإذا كان الإنسان في ظلام دامس فإنه لا تنفعه عينه، وإذا كان الإنسان في نور وهو أعمى فإنه لا ينتفع بذلك النور؛ كحال الإنسان إذا سُلب العقل فهو مجنون لا ينتفع بخطاب الوحي، فلا بد من أن يتخذ الإنسان سبيلاً يوصله إلى الله وينير له الطريق، فإذا أراد أن يسير إلى الله كما أراد الله فلا بد له من الوحي وإلا فهو يتخبط في ظلمات الجهل، وكلما كان الإنسان أبصر بالشريعة كان أقرب وأهدى إلى الله وإلى ما يريد الله سبحانه وتعالى، كالإنسان إذا كان في الظهيرة فإنه يكون

أبصر لطريقه, وإذا كان النور في ذلك يسيراً؛ كحال الإنسان بعد مغيب الشمس أو قبل طلوعها فإنه لا يرى ببصره كما يرى في الظهيرة، فينبغي للإنسان أن يستكثر من نور الوحي وأن يهتدي بهديه حتى يقوى له النور فيرى الحق متجلياً فلا تنطلي عليه الشبهات، والله سبحانه وتعالى أراد بعباده اليسر والرفق، ولهذا يقول الله جل وعلا واصفاً شريعته وإرادته الشرعية لأمته: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [البقرة:185]، وقد جاء عن النبي ﷺ كما في حديث عبد الله بن عباس , وكذلك أيضاً في حديث أنس بن مالك (أن النبي ﷺ قال لمعاذ بن جبل و أبي موسى: يَسِّرا ولا تعسرا, وبشرا ولا تنفرا)، والنبي ﷺ حتى في أمر الدنيا كان يتوجه إلى اختيار الخير الأيسر ولا يتجاوزه إلا إذا كان إثماً, ولهذا تقول عائشة عليها رضوان الله تعالى: (ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً, فإذا كان إثماً كان أبعد الناس عنه), نعم.

تعليم الإنسان ما لم يكن يعلم

قوله: (وعلمه ما لم يكن يعلم) فالإنسان ولد جاهلاً لا يعلم من العلم شيئاً ثم الله عز وجل علمه، ومنافذ العلم التي توصل العلم إلى الإنسان هي حواسه الخمس، فالبصر منفذ إلى داخله ليعلم، وكذلك السمع، وكذلك الشم، وكذلك الإحساس، وكذلك الذوق، فهذه حواس الإنسان الخمسة، وثمة حاسة سادسة وهي النفس, أي: ما يقوم في ذات الإنسان من معنى، فالإنسان يشعر بالحزن والهم, وأيضاً بالكره والبغض شعوراً نفسياً, ولا يرى ذلك ولا يسمعه ولا يشمه ولا يحس به ولا يتذوقه، إذاً فهذه المعارف وهذه العلوم تصل إلى الإنسان عبر حواسه الخمس وزيادة الحاسة السادسة وهي المعنى القائم بالنفس، ولهذا هيأ الله عز وجل للإنسان هذه المنافذ حتى يصل إليه العلم, سواء كان العلم المشاهد مما يراه الإنسان من أمور الدنيا، أو كان علم الغيب الذي لا يصل إليه إلا بواسطة السمع, وهي الأمور التكليفية من أمور العبادة، والتي مردها إلى السمع هي المرادة هنا بالكلام عليها، ولهذا الله جل وعلا يقول لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ﴾ [التوبة:6]، ولم يقل: حتى تريه الكون، أو حتى تريه الأرض أو السماء أو الفجاج, بل قال: (حتى يسمع كلام الله)؛ لأن الإنسان لن يعرف الله عز وجل إلا بوحي الله, ثم يستدل ويهتدي على أصل وجود الله وعلى وحدانيته بما يراه في هذه الكون, فلا يمكن أن يهتدي إلى معرفة تفاصيل صفات الله عز وجل وحقه سبحانه وتعالى في العبادة, ومعرفة أنواعها إلا بما شرع الله جل وعلا, وما شرعه الله عز وجل موجود في كتابه وسنة رسوله ﷺ، فالله عز وجل علم الإنسان ما لم يعلم، فعلمه أمر الدنيا, وكذلك أمر الدين، على أمر الدنيا بما خلق له من عقل ومنافع حتى يستفيد منها الإنسان في معرفة الخير من الشر, وكذلك أيضاً علم الوحي, والأصل أن العلم إذا أطلق في كلام الله أنه يراد به علم الوحي من الكتاب والسنة إلا لقرينة صارفة عن ذلك, أو مدخلة لشيء من علوم الطبيعة في هذا العلم، ومع ما آتى الله عز وجل الإنسان من علم إلا أنه قليل، ولهذا يقول الله جل وعلا: ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء:85].

قوله: (وكان فضل الله عليه عظيما) ذكر سبحانه وتعالى أنه علمه ما لم يكن يعلم, ثم ذكر أن فضل الله عز وجل عليه عظيم؛ وذلك أن أعظم فضل هو علم الوحي، أعظم فضل ونعمة على الإنسان علم الوحي, وبدون علم الوحي يخرج الإنسان من دائرة البشرية إلى دائرة البهيمية؛ لأنه يشترك مع البهيمة في الأكل والشرب والضرب في الأرض من غير بصيرة ولا هداية،

وقد كرم الله سبحانه وتعالى الإنسان بالعقل, فإذا لم يستعمل العقل إلا في الأكل والشرب فإن البهائم تستعمل عقلها في الأكل والشرب أدق من الإنسان, وتهيء لنفسها بيئة تعيش فيها كما يهيئ الإنسان لنفسه بيئة يعيش فيها، فالطيور وكذلك الأسماك والسباع في البرية ونحو ذلك تهيئ لنفسها من بيئتها ما يناسبها كما يهيئ الإنسان لنفسه ما يناسبه، فالطيور تهيئ عشها, وتغذي فراخها, وتعتني بأمنها ونحو ذلك؛ كما يهيئ الإنسان، وكل مخلوق له بيئته، فالطيور تختلف عن السباع والسباع تختلف عن الأسماك والبر يختلف عن البحر, وهكذا كلٌ له بيئة تهيأ له، لكن إذا نظر كل مخلوق إلى ذاته رأى امتيازاً له على غيره, ولو كان كذلك لافتخرت الطيور بالطيران على السباع, وافتخرت الأسماك بكونها في الماء على ما كان في البرية, والإنسان إذا سُلب الهداية إلى الله سبحانه وتعالى فإنه يكون أضعف وأضل من الأنعام سبيلا، فإن للبهائم قدرة على بعضها البعض، ولها سطوة على بعضها البعض، وقد ميز الله عز وجل الإنسان بهذا العلم, وهو الاهتداء إلى الله سبحانه وتعالى, ولهذا نجد في القرآن أن الله عز وجل لا يذكر الإنسان إلا بصيغة الذم؛ لأن دائرة الإنسانية المجردة ليست كرامة, فليس من المحامد وصف الشيء بالإنسانية؛ لأن الإنسانية صنف من مخلوقات الله سبحانه وتعالى يشارك غيره في الضرب في الأرض, ولكن الله سبحانه وتعالى كرم الإنسان بالإيمان والتوحيد، والأصل في من وصف بأنه إنسان أنه على خسار, ولهذا يقول الله جل وعلا في كتابه العظيم: ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [العصر:1-3]، فالله عز وجل لا يذكر الإنسان في القرآن إلا في سياق الذم كالخسران، فالإنسانية وصف لحال مخلوق من مخلوقات الله عز وجل فإذا لم يخرج من تلك الدائرة كان كحال البهائم أو دون ذلك، ولهذا الله جل وعلا وصف المشركين والكفار ومن أعرض عن الله عز وجل بأنهم ﴿ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان:44].

فضل الله على الإنسان

فقوله: (وكان فضل الله عليه عظيماً)، يعني: ما أنعم عليه من تلك النعمة, حيث أنزل عليه وحيه وأرسل إليه الرسل وأقام له النذر، فكرمه الله عز وجل بهذه العبودية لأعظم معبود سبحانه وتعالى، إذ لا معبود بحق إلا الله، يقول الله جل وعلا: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ [يونس:58] ((قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ))، وفضل الله عز وجل هو الإسلام، وكان السلف الصالح عليهم رحمة الله تعالى يسمون فضل الله عز وجل: الإسلام؛ كما جاء عن عبد الله بن عمر وغيره أنه كان يقول: اللهم كما هديتني للإسلام فلا تقبضني إلا وأنا مسلم.

تنبيه الإنسان بآثار صنعة الله

قال المصنف رحمه الله: [ونبهه بآثار صنعته، وأعذر إليه على ألسنة المرسلين الخيرة من خلقه، فهدى من وفقه بفضله، وأضل من خذله بعدله].

قوله: (ونبهه بآثار صنعته)، أي: أن الله سبحانه وتعالى أمره بأن ينظر بتلك الحواس في مخلوقات الله عز وجل، كالأفلاك والنجوم, فينظر في السماء, وينظر في السحاب وتأليف الله عز وجل بينها, وينظر في الأمطار والأرض في حال اهتزازها وربوتها

إنباتها, وكذلك في عودتها بعد ذلك كأنها لم تكن على خضرة من قبل, وينظر في ما كان عليه الأمم السابقة من إغداق في الحياة مما أنزل الله عز وجل عليهم ثم سلبهم ذلك, وما أنزل الله عز وجل على الأمم الغابرة من عقاب متنوع، تختلف فيه هذه الأمة عن الأمة الأخرى, مما يدل على قدرة الله عز وجل, وينظر كذلك في تسيير الله عز وجل للأفلاك والنجوم وهذه الأجرام المنضبطة في السير من غير سمع ولا بصر ومن غير إدراك، فهي جمادات تأتمر بأمر الله عز وجل فإذا امتثلت هذه المخلوقات لأمر الله عز وجل ولم تخرج عنه وانضبطت, فما بال من آتاه الله عز وجل ذلك الإدراك يخرج عن مراد الله سبحانه وتعالى؟ ولهذا نقول: إن من خرج عن أمر الله جل وعلا مع هذا الإدراك يكون شراً من البهائم؛ لأنه كان صاحب مشيئة ففرط فيها فأصبح كالأنعام بل هو أضل.

الإعذار إلى الإنسان على ألسنة الرسل

قوله: (وأعذر إليه على ألسنة المرسلين الخيرة من خلقه, فهدى من وفقه بفضله, وأضل من خذله بعدله).

الله سبحانه وتعالى لا يظلم الناس مثقال ذرة، فمن وفقه إلى الخير فالله عز وجل تفضل عليه, ومن لم يوفقه الله عز وجل إلى الخير، فيقال: إن هذا مما كسبت يد الإنسان, وهو اختيار له، فقد جعله الله عز وجل له اختياراً، فالله سبحانه وتعالى لا يظلم أحداً، ولهذا جاء في الصحيح من حديث أبي ذر أن النبي ﷺ قال: (قال الله جل وعلا: يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا)، فالله عز وجل لا يظلم الناس مثقال ذرة، ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت:46]، ولهذا أقام العدل والميزان بالقسط، وأمر بأن يقام في الناس, وجعله سبحانه وتعالى الأمر الذي يكون بينه وبين عباده من جهة القضاء والتشريع، وكذلك أيضاً من جهة الحساب يوم القيامة.

والله سبحانه وتعالى كرم الخلق كما تقدم بكتبه, وكذلك أيضاً برسله, يدلونهم في حال الانحراف، فكلما انحرفت الأمة بعث الله عز جل إليها النذر، ولهذا يقول النبي ﷺ كما جاء في حديث أبي هريرة: (كانت بنو إسرائيل تسوسهم أنبيائهم, كلما ذهب نبي خلفه نبي بعده)، وجاء أيضاً عن النبي ﷺ أن الله جل وعلا قال: (خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين)، يعني: الأصل في الخلقة أن الله عز وجل خلق الإنسان مهدياً, وفطره على الفطرة الصحيحة كما في قول الله جل وعلا: ﴿ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم:30]، وفي الصحيحين أيضاً من حديث أبي هريرة : (ما من مولود إلا ويولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه).

التيسير على المؤمنين وشرح صدورهم

قال المصنف رحمه الله: [ويسر المؤمنين لليسرى, وشرح صدورهم للذكرى, فآمنوا بالله بألسنتهم ناطقين، وبقلوبهم مخلصين، وبما أتتهم به رسله وكتبه عاملين، وتعلموا ما علمهم، ووقفوا عند ما حد لهم، واستغنوا بما أحل لهم عما حرم عليهم.].

قوله: (ويسر المؤمنين لليسرى، وشرح صدورهم للذكرى). من أعظم النعم أن يهيأ الإنسان لليسرى, ومن التهيئة في ذلك

أمور قدرية يهيئها الله عز وجل للإنسان من غير اختيار, منها: أن يولد الإنسان من أبوين مسلمين, وأن يوجد أيضاً في بيئة مسلمة, فهذا من الأمور القدرية التي لا اختيار للإنسان فيها, فهذا من نعمة الله عز وجل على عباده، وقد يفوق الإنسان ذلك غيره ممن لم يهيأ له ذلك قدراً، كأن يؤمن الإنسان في بلد ليس فيها مسلمون, أو يسلم الإنسان وهو من أبوين ليسا بمسلمين, ولهذا نقول: إن فضل الله عز وجل على عباده يتنوع، وربما يريد الله عز وجل بالإنسان خيراً وهو من أبوين ليسا من أهل الإسلام, وذلك أنه يريد بذلك أن يعظم أجر ذلك المتعبد له؛ لأنه ولد في بيئة ليست إسلامية ثم آمن فذلك أشد مشقة عليه مما لو ولد في بيئة إسلامية ثم بقي على الإسلام، فكل له وجه من أمور التوفيق والهداية, يريد الله عز وجل بأقوام خيراً, وهو سبحانه وتعالى لا يريد بعباده إلا ذلك.

وكذلك أيضاً من أراد الله عز وجل له الهداية شرح صدره للإيمان، وشرح صدره للإسلام بأن يقبل الحق, ومن لم يرد الله عز وجل به خيراً سلبه ذلك, بأن يجعله لا يقبل الإسلام ويضيق عند سماعه وينصرف عنه, فيختم الله عز وجل على سمعه وبصره ويجعل على قلبه غشاوة.

من ثمرات التيسير على المؤمنين وشرح صدورهم

قوله: (فآمنوا بالله بألسنتهم ناطقين، وبقلوبهم مخلصين, وبما أتتهم به رسله وكتبه عاملين).

قوله: (فآمنوا بالله بألسنتهم ناطقين، وبقلوبهم مخلصين)، يعني: مخلصين بما نطقوا, وقد ذكر هنا الثلاثة الأمور المذكورة في تعريف الإيمان, وهي: نطق باللسان, وعمل القلب وهو: الجنان, وكذلك أيضاً عمل الجوارح, ولهذا نقول: إن الإيمان قول وعمل, ويأتي الكلام على هذه المسألة بإذن الله.

قال المصنف رحمه الله: (وتعلموا ما علمهم, ووقفوا عند ما حد لهم, واستغنوا بما أحل لهم عما حرم عليهم).

يقول: وتعلموا ما علمهم، يعني: أخذوا ذلك العلم استرشاداً واستضاءة, وذلك لفضل العلم ومنزلته, والله سبحانه وتعالى جعل أشرف العلم لشرف المعلوم, وأشرف معلوم هو العلم بالله سبحانه وتعالى، فكان علم الوحي هو أعظم العلوم على الإطلاق، وهو الذي أمر الله جل وعلا نبيه أن يسأله زيادة فيه فقال: ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه:114]، وقد رفع الله عز وجل أهل الإيمان كما في قوله جل وعلا: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [المجادلة:11].

وهنا في مسألة التعلم ذكر أنهم تعلموا العلم ثم وقفوا عند الحدود, ولم يعلموا ثم يفرطوا من جهة العمل؛ لأن العلم يقيم على الإنسان الحجة، والجاهل الذي لا يعمل خير من العالم الذي لا يعمل؛ لأن هذا أظهر في باب العناد, وإن لم يكن الجهل عذراً لكل أحد، والعالم كلما استزاد علماً استزاد معرفة بأحكام الله عز وجل وحكمه وأوامره, فإذا فرط في ذلك كان أظهر في المخالفة والعناد وعدم الاكتراث والمبالاة بأمر الله.

الالتجاء إلى الله في فهم العلم ورعايته

قال المصنف رحمه الله: [أما بعد: أعاننا الله وإياك على رعاية ودائعه, وحفظ ما أودعنا من شرائعه, فإنك سألتني أن أكتب لك جملة مختصرة من واجب أمور الديانة، مما تنطق به الألسنة وتعتقده القلوب وتعمله الجوارح، وما يتصل بالواجب من ذلك من السنن من مؤكدها ونوافلها ورغائبها وشيء من الآداب منها].

قوله: (أما بعد), هي فصل الخطاب, وكان النبي ﷺ يستعمل فصل الخطاب في خطبه, وكذلك الخلفاء الراشدون من بعده وفي كتاباتهم أيضاً, واختلف في أول من بدأ ذلك –وهذا يفتقر إلى دليل صريح في هذا– على أقوال, قيل ستة وقيل سبعة، ولكن لا يصح شيء من الأدلة صراحة في أول من قالها, وإن ثبت عن بعضهم ما نقل عنهم ذلك.

قوله: (أعاننا الله وإياك على رعاية ودائعه) هذا من الدعاء المستحسن في الدعاء للقارئ, للكاتب لهذه الرسالة.

وفيه أيضاً: أن الإنسان ينبغي أن يلتجئ إلى الله سبحانه وتعالى في فهم العلم ورعايته, فربما يتعلم الإنسان العلم ولا يحفظ تلك الوديعة بالتفريط فيها، لا يحفظها من جهة العمل ولا يرعاها ويحفظها من جهة صيانتها من الهدر والنسيان, فإن الإنسان إذا أقيمت الحجة عليه ثم عطلها حفظاً وعطلها عملاً فإن ذلك أظهر في عدم المبالاة والاكتراث بأمر الله سبحانه وتعالى.

قوله: (وحفظ ما أودعنا من شرائعه) لدينا دين ولدينا شريعة، فدين الله عز وجل الإسلام وهو واحد, وأما الشرائع فهي متعددة، كما قال تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة:48]، والدليل على أن الدين واحد قول الله جل وعلا: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾ [آل عمران:19]، ولهذا نقول: إن الدين واحد والشرائع متعددة, تختلف في شرائع الأنبياء, وأما بالنسبة لدين الإسلام فهو واحد منذ أن أنزل الله عز وجل آدم إلى نبينا مُحَمَّد ﷺ, إذا طرأ عليه تبديل فإنه يجدد في ذلك, ويستعمل الدين وتدخل فيه الشريعة, وتستعمل الشريعة وتدخل فيها الدين, وبينهما عموم وخصوص في ذلك, فإذا أطلقت عبارة فإنها يدخل فيها الأخرى، فيقال: إذ اجتمعا افترقا وإذا فترقا اجتمعا في الغالب.

سبب تأليف رسالة ابن أبي زيد القيرواني وأهميتها

قوله: (فإنك سألتني أن أكتب لك جملة)، وفي هذا إشارة إلى معنى أن هذا المصنف إنما صنفه المصنف رحمه الله لطلب من طلبه في ذلك, وأنه ينبغي لأهل العلم في حال رؤيتهم لحاجة الناس في مسألة من المسائل أن يكتبوا لهم لإقامة الحجة، وكثير من المصنفات يكتبها الأئمة لفرد أو أفراد ثم ينفع الله عز وجل بها الأمم، ومثل هذه الرسالة ربما كتبها المصنف في ظاهر سياقه لواحد, ثم نفع الله عز وجل بها بعد ذلك خلقاً من البشر عبر قرون مديدة، ولهذا إذا ظهر من الإنسان الصدق عمم الله عز وجل نفعه, فكان نفعه للواحد متعدياً إلى الأمم والخلق, وإذا علم الله عز وجل عدم صدقه فلو خاطب الخلق كلهم لجعل الله عز وجل خطابه إلى أُفول واضمحلال وزوال، ولهذا نقول: إن الصدق له أثر في ذلك, فإن الله عز وجل يجعل أمور الناس في تبليغ

العلم كحال الغيث, منها ما ينزله الله عز وجل وينفع به, ومنها ما ينزله الله عز وجل على مواضع لا تنبت, فالله سبحانه وتعالى هو الذي يجعل القبول لعباده.

اختصار الرسالة وموضوعها

قوله: (مختصرة من واجب أمور الديانة).

يقول هنا في الإجابة على شيء من مسائل الديانة: وأن يكون ذلك على سبيل الاختصار؛ وذلك لحاجة الناس, ولعادة النبي ﷺ الاختصار في الأقوال وتقريبها للأفهام، ولهذا كانت كلمات النبي ﷺ تعد عداً, تقريباً, وكان الصحابة عليهم رضوان الله كذلك يجرون عباراتهم على سبيل الاختصار فيما يوصل العلوم بعيداً عن الإسهاب والإطالة، ثم توسع الناس بعد ذلك وتوسع المتأخرون.

ثم قال: (مما تنطق به الألسنة وتعتقده القلوب وتعمله الجوارح), وفيه إشارة إلى أن الإسلام هو هذه الثلاثة: نطق اللسان, وعمل القلب, وعمل الجوارح.

شمول الرسالة لأصول الإسلام

قوله: (وما يتصل بالواجب من ذلك).

كأنه هنا جعل هذه الثلاثة, وهي: عمل القلب, ونطق اللسان, وعمل الإنسان بجوارحه؛ منها ما هو واجب ومنها ما هو مستحب, وهو كذلك، فثمة أمور واجبة على الإنسان بقلبه, وثمة أمور ليست بواجبة هي من الأمور المستحبة، وذلك ما يتعلق بأمور العلو في مراتب التوكل، والعلو في مراتب الرجاء، والتعلق بالله سبحانه وتعالى, تعلق الصديقين وغير ذلك, هذه هي من مراتب الكمال.

وهكذا أيضاً بالنسبة للنطق باللسان، ثمة ما هو واجب على الإنسان كالنطق بالشهادتين؛ كما في قول النبي ﷺ في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة و أنس بن مالك قال: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله)، إذاً النطق من الواجبات.

ومن عمل القلب أيضاً ما هو واجب؛ كمسألة حب الله عز وجل وخشيته؛ كما في قول النبي ﷺ في حديث أنس بن مالك: (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين).

وكذلك أيضاً في نفي الإيمان عمن لا يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار، إذاً التعلق بالله سبحانه وتعالى مرتبة من المراتب الواجبة على الإنسان في أموره القلبية.

وهكذا بالنسبة لعمل الجوارح؛ منها ما هي واجبات كأمور الصلاة, ومنها ما هي دون ذلك كالنوافل من الصلوات, ومنها ما هي واجبات من أمور الحج والعمرة، ومن الحج والعمرة ما هو نوافل, ومنها ما هي نوافل ولم تفرض من جهة الأصل, ليس لها من جنسها شيء فرضه الله سبحانه وتعالى؛ ككثير من أعمال البر وذلك كالإحسان إلى الناس من حسن الخلق, والابتسامة في وجوههم, ومثل إعانة الإنسان في طريقه أو نحو ذلك, هذه من الأمور المستحبة التي تكون من الإنسان عملاً ولا تجب عليه عيناً.

قوله: (من السنن مؤكدها ونوافلها ورغائبها, وشيء من الآداب منها), وهذا على ما تقدم من أن الشريعة منها عقائد, ومنها فقه, ومنها آداب, ومنها سلوك, ومنها ما يتعلق بالسنن، السنن عامة منهم من يدرجها في أبواب الأحكام, باعتبار أن الأحكام هي: الواجب, والحرام, والمندوب, والمكروه, والمباح, فهي داخلة في هذه الدائرة يدخل فيها الجميع، فيدخلون الآداب وأمور السلوك المستحبة في هذا الباب, ومنهم من يفصلها ويجعلها منفردة.

احتواء الرسالة على جمل من أصول الفقه وفنونه على مذهب الإمام مالك

قال المصنف رحمه الله: [وجمل من أصول الفقه وفنونه على مذهب الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى، وطريقته مع ما سهل سبيل ما أشكل من ذلك من تفسير الراسخين وبيان المتثقفين].

قوله: (وجمل من أصول الفقه وفنونه..)، وعلى ما تقدم فإن هذه الرسالة إنما هي مختصرة في فقه مذهب الإمام مالك رحمه الله، وهذا يدل على أن أقوال الإمام مالك رحمه الله في مسائل العقائد تجري مجرى أقوال الصحابة والتابعين, وأنه لم يخرج عنهم ولو قيداً يسيراً، ولهذا صنف هذه الرسالة ومقدمتها على منهج الإمام مالك رحمه الله, وكذلك أيضاً أبواب أصول الفقه, فإن أصول الإمام مالك رحمه الله هي من أصح الأصول وأنقاها.

الترغيب في تعليم الولدان

قال المصنف رحمه الله: [وبيان المتفقهين لما رغبت فيه من تعليم ذلك للولدان كما تعلمهم حروف القرآن, ليسبق إلى قلوبهم من فهم دين الله وشرائعه ما ترجى لهم بركته وتحمد لهم عاقبته].

وللعلم بركة على الإنسان، بركة في نفسه وبركة أيضاً في ماله, وبركة في ذريته, ولهذا النبي ﷺ كان أعظم الناس بركة لما لديه من علم فهو أعظم الأمة علماً؛ لأن الله عز وجل آتاه الوحي، ولهذا يقول كما في الصحيح: (بينا أنا نائم أُتيت بقدح لبن فشربت منه حتى رويت, حتى رأيت أثر الري يخرج من أظفاري، قالوا: ما أولت ذلك؟ قال: العلم)، يعني: امتلأ النبي صلى

الله عليه وسلم علماً مما علمه الله جل وعلا، فأراد الله سبحانه وتعالى به كمال الخير, ولم يسلبه من ذلك شيئاً, وإن سلب من دنياه عليه الصلاة والسلام لأن الدنيا ليست دار سلامة، ولهذا النبي ﷺ ربما أوذي في نفسه وأوذي في عرضه، وربما أوذي في دمه وأوذي في ماله عليه الصلاة والسلام فسلب ذلك ليس سلباً للخيرية المرادة، ولهذا يقول النبي ﷺ: (من يرد الله به خيراً يفقه في الدين)، وإرادة الخير هي ... لوازمها، آثارها, وهي البركة.

قال المصنف رحمه الله: [فأجبتك إلى ذلك لما رجوته لنفسي ولك من ثواب من علم دين الله أو دعا إليه]، وهذا ما ينبغي على الإنسان في أمور العلم والتعليم والكتابة والتأليف, وينبغي أيضاً توجيه الناس وإرشادهم, ولو بالإشارة, إلى أن يصدق الإنسان النية مع الله عز وجل.

وهنا بين أنه صنف هذه الرسالة رجاء ما عند الله سبحانه وتعالى من ثواب الداعي, وكذا ثواب المعلم, وكذلك أيضاً يرجو لغيره أن يكون سبباً معه في مثل هذا, وأما ما يتعلق بمسائل الدلالة على الخير أو التسبب فيها، فمن تسبب بخير فإن له مثل أجر من تبعه في ذلك؛ كما جاء عن النبي ﷺ: (من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى قيام الساعة)، فتكون هذه الرسالة لمصنفها ولمن تسبب بها وسألها، لمن سألها فيلحقه في ذلك الأجر, وإن جهلناه فالله عز وجل يعلمه, فالله سبحانه وتعالى يعلم الذي سأل تدوين هذه الرسالة وتسبب بانتشارها وانتفاع الناس بها, وذلك فضل الله عز وجل يؤتيه من يشاء.

أهمية ودواعي ومنهجية تعليم الصغار

قال المصنف رحمه الله: [واعلم أن خير القلوب أوعاها للخير وأرجى القلوب للخير ما لم يسبق الشر إليه, وأولى ما عني به الناصحون ورغب في أجره الراغبون إيصال الخير إلى قلوب أولاد المؤمنين ليرسخ فيها، وتنبيههم على معالم الديانة وحدود الشريعة, وما عليهم أن تعتقده من الدين قلوبهم، وتعمل به جوارحهم، فإنه روي أن تعليم الصغار لكتاب الله يطفئ غضب الله، وأن تعليم الشيء في الصغر كالنقش في الحجر].

فراغ قلوبهم

قوله: (واعلم أن خير القلوب أوعاها للخير، وأرجى القلوب للخير ما لم يسبق الشر إليه).

القلوب والعقول أوعية لا بد أن تملئ, فإذا لم يملأها الإنسان بالخير ملئت بالشر, إما ملأتها النفس أو ملأها الشيطان، لهذا ينبغي للإنسان أن يبادر, فلا يوجد قلب وعقل يبقى فارغاً إلى أن يلقى الله عز وجل, لا بد أن يملأ، فينبغي للإنسان أن يملأ قلبه بالعلم وبالوحي, والإنسان إذا كان له ولاية على من تحته ممن ولاه الله عز وجل أمراً؛ كالصبية الصغار عليه أن يعلمهم؛

لأن قلوبهم وعقولهم ولدوا على أنها فارغة, فينبغي أن يملأها بالخير؛ لأنها إذا لم تملأ به ملئت بالأهواء، وملئت بالمشارب, وملئت بالضلال, وهذا من عظيم التربية والواجب على الإنسان, والنبي ﷺ قد حث على ذلك وأرشد إليه.

سهولة إصلاحهم

قوله: (وأولى ما عني به الناصحون ورغب في أجره الراغبون إيصال الخير إلى قلوب أولاد المؤمنين ليرسخ فيها؛ لأن علم الصغار يختلف عن علم الكبار، فالكبار ربما يتصلبون؛ وذلك لأنهم ربما تشربوا الضلال فيصعب تحولهم عن ذلك, بخلاف القلب الخالي فأول ما يأتي إليه يثبت عليه، ولهذا من نعم الله عز وجل على الإنسان أن يتعلم الحق أول شيء فإنه يثبت عليه أعظم من ثبات غيره غالباً, وهذا من الأسباب المادية المعروفة، ولهذا النبي ﷺ أرشد إلى تعليم الصغار ومبادرتهم في ذلك، فقال النبي ﷺ: (مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين)، يعني: مع بداية الإدراك, بادرهم بعمل الخير قبل أن يبادروا بعمل الشر، (واضربوهم عليها لعشر)، يعني: التطويع على مثل هذا العمل حتى يخضعوا ويقبلوا الحق, بخلاف القلوب المتصلبة فربما تتشرب الكفر كما يتشرب الإسفنج الماء, أو كما تتشرب الأرض الماء، فلا يستطيع الإنسان أن يعيد الماء من تراب قد شربه ولا يستطيع الإنسان إخراجه، فلهذا الأرض الممتلئة والمشبعة بالماء إذا سقيت بماء آخر فإنه يطفح عليها, وكذلك حال الإنسان وقلبه إذا كان ممتلئاً بالحق وجاءه الباطل خرج منه؛ لأنه ممتلئ، وأعظم النفوس عناداً التي تُشرب الباطل، ولهذا يقول الله جل وعلا عن بني إسرائيل في العجل: ﴿ وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ ﴾ [البقرة:93]، يعني: أن قلوبهم تشربت حب العجل حتى صعب أو شق عليهم أن يتحولوا.

قوله: (وتنبيههم على معالم الديانة وحدود الشريعة ليراضوا عليها, وما عليهم أن تعتقده من الدين قلوبهم). الشريعة لها حدود حدها الله عز جل، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ ﴾ [الطلاق:1]، فالله عز وجل قد جعل حدود الدين على معالم مرسومة, وأمر بلزومها وعدم الخروج منها, وحذر الله جل وعلا أيضاً من الابتداع والإحداث في دينه، ولهذا يقول الله جل وعلا: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ [الأنعام:153]، ويقول النبي ﷺ كما جاء في الصحيحين من حديث عائشة : (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)، وفي مسلم من حديث عائشة : (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)، ولهذا نقول: إن مسائل الشريعة محدودة ومبصومة, وقد حذر النبي ﷺ من الخروج عنها، ولهذا قال النبي ﷺ: (عليكم بسنتي)، ثم قال بعد ذلك عليه الصلاة والسلام بعدما أوصى بالصحابة وكذلك بسنتهم قال: (وإياكم ومحدثات الأمور)، يعني: ما كان خارجاً عن الشريعة من أمور الديانة فهو ضلالة وبدعة في دين الله سبحانه وتعالى.

رسوخ التعليم في الصغر

قوله: (وما عليهم أن تعتقده من الدين قلوبهم، وتعمل به جوارحهم, فإنه روي أن تعليم الصغار لكتاب الله يطفئ غضب الله, وأن تعليم الشيء في الصغر كالنقش في الحجر)، وهذا أمر معلوم, فالإنسان إذا تعلم ابتداء فإنه يتشرب الشيء ولا يزول

عنه, وكلما اعتاد الإنسان على شيء ثبت ورسخ عليه، وكما ذكر فإن العلم في الصغر كالنقش في الحجر, وهذا أمر مجرب, وتحفيظ الصغار للعلم وتثبيت العلم فيهم ابتداء, هذا مما يقوي الملَكَة لديهم ويرسخ المعلومة؛ وذلك لأن القلب خالٍ ولم ينشغل بأمور الدنيا وهمومها، ولهذا أمر النبي ﷺ بتعليم الصبية والمبادرة بذلك، قبل أن يعلَّم شيئاً من أنواع العلم الذي لا يريده, فيعلم الابن الجهالة أو الضلال أو الانحراف، ونحن في زمن قد كثرت منافذ التعليم والتلقي عند الصغار، وقد فتحت الفتن بجميع أنواعها من فضائيات ومسموعات ومقروآت, وكذلك ملاهي متنوعة, فإذا أغرق وأشبع قلب الإنسان بذلك من صغره صعب عليه أن يوضع فيه غير ذلك، ولهذا ندعو إلى المبادرة بتعليم الصبيان قبل أن يُبادَروا بخلاف ذلك، فالشوارع تضع, والمدارس تضع, والإعلام يضع, والأصحاب والزملاء يضعون, والأقربون يضعون كذلك، لهذا ينبغي للإنسان أن يبادر بتعليم من ولاه الله جل وعلا أمره.

منهجية تعليم الصغار

وينبغي أن يبدأ بالقرآن, وتعليم القرآن للصبيان ينبغي أن يكون على سبيل التدرج لا على سبيل المسارعة، ولهذا قيل للإمام مالك رحمه الله: إن هنا صبياً يحفظ القرآن وهو ابن سبع سنين, قال: لا يعجبني، يعني: أنه ينبغي أن يتدرج فيه حتى لا يثقل عليه؛ لأن للصبي نزوة من الانصراف والمتعة ونحو ذلك, فينبغي أن يؤخذ على سبيل التدرج حتى لا ينفر, وهذا كما أنه في الصغير من هذا الوجه فهو كذلك أيضاً في الكبير حتى يتدرج في العلم ولا يعتد بما لديه، ولهذا روى عبد الله بن أحمد في كتابه السنة عن عبد الله بن عمر من حديث الأصم عن عبد الله بن عباس عليه رضوان الله أنه قال: كنت عند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فجاءه أحد عماله فسأله قال: ما فعل الناس بالقرآن؟ فقال عامله: قرأ منهم القرآن كذا وكذا, فقال عبد الله بن عباس: لو لم يفعلوا لكان خيراً، قال: فزجرني عمر بن الخطاب عليه رضوان الله تعالى, فقال عبد الله بن عباس : فخرجت مهموماً على وجهي, فعادني بعض أهلي وما بي من وجع, يعني: مهموماً من زجر عمر له, ثم قيل لي: أجب أمير المؤمنين, قال: فخرجت, فقال: ما الذي قلت؟ قلت: والله ما أردت إلا خيراً يا أمير المؤمنين, قال: أعلم. ما الذي قلت؟ فقال عبد الله بن عباس عليه رضوان الله: يا أمير المؤمنين إنه قال: قرأ القرآن منهم كذا وكذا وإني لا أحب أن يسرعوا هذه المسارعة؛ لأنهم إن أسرعوا هذه المسارعة احتقوا, وإن احتقوا اختلفوا, وإن اختلفوا اقتتلوا، يعني: الإنسان يظن أن كثرة العلم لديه هي بكثرة المحفوظ والمسارعة فيه، فاحتقوا أي: كل يدعي أن الحق لديه، فيقول: أحفظ القرآن, وأحفظ السنة, يظن أن هذا هو العلم، والعلم هو أيضاً فهم وإدراك وخبرة في الحياة وتدرج فيها شيئاً فشيئاً، فلا يصدر الإنسان لمجرد محفوظاته، بل لا بد من معرفة الواقع ومعرفة الحال وأين توضع الأدلة ونحو ذلك قال: عمر بن الخطاب لعبد الله بن عباس: لله أبوك ، كنت أكتمها حتى قلتها, يعني: أنه موجود في نفسي مثل هذا الأمر ولكن أنت دللتني عليها, وهذا من الفقه والسياسة الشرعية, لهذا ينبغي أن يتدرج في تعليم الصبيان ويتدرج في تعليم الكبار، ويتدرج في تعليم الصبيان من جهة الحفظ، ويوضع لهم أحزاب وأجزاء بحيث يمر عليه سنتان أو ثلاث سنوات أو أربع سنوات ويكون قد أتم القرآن، ولا يشد عليه مثلاً في فترة زمنية معينة.

البدء بغير القرآن لمن تقدم به العمر

وينبغي ألا يُبدأ بشيء قبل القرآن للصغار خاصة إلا الإنسان إذا تقدم به العمر ورأى أنه يثقل عليه أن يجمع بين القرآن والسنة, ولهذا ذكر القاضي ابن أبي يعلى عن الإمام أحمد رحمه الله في الطبقات أنه سئل: أريد أن أعلم ابني القرآن أأبدأ بالقرآن أم بالسنة؟ قال: بالقرآن, قال: إنه قد كبر, قال: بالقرآن, قال إنه قد كبر, قال: علمه هذا وهذا, يعني: القرآن لا تدعه في أي حال, لهذا فالإنسان يتعلم العلم وأول العلم القرآن وهو أصله, ثم يتعلم سنة النبي ﷺ يقرنها معه, والتفرغ للقرآن ابتداء خاصة في الصغر هي من الأمور المهمة التي تعين الإنسان على ثباته، كذلك للقرآن بركة ويمن على صاحبه، وقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال كما جاء في حديث عقبة: (لو جعل القرآن إهاباً ثم ألقي في النار ما مسته النار), ومراد النبي ﷺ بذلك أن القرآن في جوف الإنسان والإنسان من جلد, وأن الله عز وجل لا يعذب عبده لو ألقي في النار وهو صاحب قرآن, وهذا من فضل الله عز وجل، وهذا إنما هو فيمن تعلم القرآن لله سبحانه وتعالى بخلاف من قرأ القرآن ليقال قارئ فإنه (أول من تسعر بهم النار), كما جاء في مسلم من حديث سليمان بن يسار عن أبي هريرة عليه رضوان الله.

قال المصنف رحمه الله: [وقد مثلت لك من ذلك ما ينتفعون إن شاء الله بحفظه، ويشرفون بعلمه, ويسعدون باعتقاده والعمل به، وقد جاء أن يؤمروا بالصلاة لسبع سنين ويضرب عليها لعشر ويفرق بينهم في المضاجع].

وكذلك هذه الرسالة دليل على عناية الأئمة عليهم رحمة الله بالصبيان بتعليمهم مسائل العقائد، فهذه الرسالة هي مصنفة من جهة الأصل للصغار، مصنفة للأولاد, ولكن لما فيها من معاني جليلة القدر وأصول عظيمة يتعلمها الصغار وكذلك أيضاً الكبار, وفيها عناية ذلك الجيل بتعليم الصغار وتفقيههم العقيدة وتبصيرهم بما فيها من معاني وأحكام وكذلك أدلة.

الحكمة من التعليم قبل البلوغ

قال المصنف رحمه الله: [فكذلك ينبغي أن يعلموا ما فرض الله على العباد من قول وعمل قبل بلوغهم؛ ليأتي عليهم البلوغ وقد تمكن ذلك من قلوبهم, وسكنت إليه أنفسهم, وأنست بما يعملون به من ذلك جوارحهم].

وهذا على ما تقدم في حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ قال: (مروا أولادكم للصلاة وهم أبناء سبع, واضربوهم عليها لعشر, وفرقوا بينهم في المضاجع), فهذا يعني المبادرة بالتعليم, وقد كان النبي ﷺ يعلم الصبيان ويرشدهم عليه الصلاة والسلام, يعلمهم الأصول ويعلمهم الفروع، ولهذا عبد الله بن عباس ناهز الاحتلام ويقول كما في البخاري: (توفي النبي ﷺ وأنا قد حفظت المفصل)، يعني: من القرآن, وكان يعلمه النبي ﷺ أيضاً كثيراً من الأحكام, وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول له: (يا غلام, احفظ الله يحفظك، يا غلام .. إلخ)، وكذلك أيضاً قوله: (يا غلام, سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك)، هذا إرشاد إلى آداب، وإرشاد إلى أصول، وإرشاد إلى أحكام متنوعة, فينبغي للإنسان أن يجعل العلم في تربية الصغار متنوعاً بحسب المناسبات، إذا كان على طعام أرشدهم، وإذا وجدهم يلعبون علمهم آداب اللعب، وإذا كانوا في

موضع صلاة علمهم أحكام الصلاة, فيستغل الأوقات ويرشدهم إلى الأحكام في مناسباتها.

قال المصنف رحمه الله: [وقد فرض الله سبحانه على القلب عملاً من الاعتقادات, وعلى الجوارح الظاهرة عملاً من الطاعات, وسأفصل لك ما شرطت لك ذكره باباً باباً, ليقرب من فهم متعلميه إن شاء الله تعالى, وإياه نستخير وبه نستعين, ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم, وصلى الله على سيدنا مُحَمَّد نبيه وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً].

وهذا من جميل التوكل والاستعانة والالتجاء إلى الله عز وجل, والبراءة أيضاً المتضمنة البراءة لما يوجد في النفس, من اعتماد عليها واعتماد على علمها واعتماد على ذكائها وقدرتها، فالبراءة من ذلك هي من علامة أهل الإيمان, وألا يعتمد الإنسان في ذلك إلا على ربه سبحانه وتعالى, فهو الذي يوفق الإنسان ويسدده ويعينه ويرشده إلى الصواب.

حقيقة الإيمان وأوعيته

قال المصنف رحمه الله: [باب: ما تنطق به الألسنة وتعتقده الأفئدة من واجب أمور الديانات].

هذا هو الغالب الذي يبتدئ به الأئمة في مسائل العقائد، فيبتدئون بالأصل العام في عمل الإنسان وموضع الإيمان, وهو أصل مواضع القلب, وكذلك أيضاً بقول اللسان وعمل والجوارح، وهذه هي مواضع الإيمان وأوعيته التي لا يكون الإيمان إلا بها، فإذا فُهم ذلك أدركت الحقيقة من معنى الإيمان حتى لا يُظن أن الإيمان إنما هو آداب أو مجرد سلوك أو مجرد قول متجرد عن عمل الجوارح أو نحو ذلك, حتى ضل كثير من أهل البدع في هذا الباب حين جعلوا الإيمان معاني مخصوصة وأخرجوا غيرها منها، فطريقة الأئمة عليهم رحمة الله تعالى في هذا أنهم يبتدئون بالإيمان وتعريفه بأنه قول وعمل واعتقاد.

المراد بالإيمان ولوازم المصطلحات فيه

قال المصنف رحمه الله: [من ذلك الإيمان بالقلب والنطق باللسان أن الله إله واحد لا إله غيره ولا شبيه له ولا نظير له].

يقول: من ذلك الإيمان بالقلب والنطق باللسان أن الله إله واحد لا إله غيره، فالإيمان المراد به: القول والعمل والاعتقاد, وهو شامل لهذه الأشياء، والعمل عمل الجوارح, وقول اللسان, وكذلك عمل القلب وقول القلب, ولهذا نقول: إن هذه الثلاثة هي الإيمان, وما يذكره العلماء في قول اللسان وعمل والجوارح واعتقاد القلب من أن هذه شروط الإيمان أو أركان الإيمان أو أجزاء الإيمان؛ هذه وإن دل بعضها على بعض المعاني الصحيحة إلا أن لها لوازم ربما أدت إلى بعض المعاني القاصرة، فنقول: إن الإيمان هو: اعتقاد القلب وقول اللسان وعمل الجوارح, لا نسميها شروطاً ولا أركاناً ولا واجبات, وإنما نقول: الإيمان هو هذه الثلاثة, فإذا نقص واحد منها واختل واحد منها فإنه لا يسمى إيماناً؛ وذلك مثلاً كصلاة المغرب, فهي ثلاث ركعات,

فإذا نقصت ركعة فإنها ليست مغربا، كذلك أيضاً الإيمان هو قول اللسان وعمل الجوارح واعتقاد الجنان وهو القلب، وبعض العلماء يتجوز بذكر بعض الألفاظ فيقول: هي أركان الإيمان أو يقول: هي واجبات الإيمان أو شروط الإيمان, منهم من يقول: شروط صحة أو شروط كمال أو غير ذلك من المصطلحات التي لها لوازم مخالفة للمعنى الوارد في الشرع, وأوضح هذا وأبينه أن نقول: إن الإيمان هو هذه الثلاثة, ومن الأمثلة حتى يقرب المعنى رسول الله ﷺ، فهو واحد, وهو: مُحَمَّد بن عبد الله بن عبد المطلب, هذه الثلاثة هي مُحَمَّد أو غير مُحَمَّد؟ هي مُحَمَّد، فإذا قلنا صالح بن عبد الله بن عبد المطلب فليس مُحَمَّداً، وإذا قلنا مُحَمَّد بن صالح بن عبد المطلب فليس مُحَمَّداً، وإذا قلنا: مُحَمَّد بن عبد الله بن صالح هل هو النبي ﷺ؟ الجواب: ليس النبي عليه الصلاة والسلام, كذلك أيضاً الإيمان، فالإيمان: قول وعمل واعتقاد، هل هي أركانه أو شروطه أو واجباته؟ منهم من يستعمل هذه الاصطلاحات, فمنها ما هو أقرب للصواب من الآخر؛ كالأركان فهي أقرب من الواجبات، والواجبات أقرب من الشروط، فالسلامة في ذلك أن نلزم طريقة السلف الصالح في هذا، فنقول: إن الإيمان هو قول اللسان وعمل القلب وعمل الجوارح، وعمل القلب هو اعتقاده، فالقلب له عمل وله قول, ويأتي بيانه بإذن الله تعالى، إذا قلنا هذا نعلم أن عقيدة السلف الصالح عليهم رحمة الله أن الإيمان إذا كان بهذه الثلاثة فاختل واحد منها اختل الإيمان، فإذا وقع الإنسان بمُكفِّر بقوله هل نرجع إلى قلبه أو نرجع إلى عمله؟ لا نرجع إلى قلبه ولا نرجع إلى عمله، وأما من يقول: إن الإنسان إذا نطق بكلمة الكفر الظاهرة فلا بد أن نرجع إلى قلبه ونستفصل منه؛ فهذا قد جعل القلب هو الأصل والقول والعمل هي فرع عنه, وهذا خطأ، إذاً الإيمان: قول وعمل واعتقاد, هذه الثلاثة هي الإيمان, وإذا ظهر من إنسان كفر في عمله الظاهر؛ كالذي يسجد لصنم كفر، ولا نرجع إلى قلبه؛ لأن هذا أصل في الإيمان, فالإيمان هو هذه الثلاثة, ولا نقول هو جزء منها؛ لأن الجزء إذا نقص بقي الشيء ناقصاً؛ كالدار مثلاً لها أركان, فإذا زال ركن بقيت الدار لكن مختلة, وإذا نقص منها شيء أو هدمت منها حجرة أو أزالت جزءاً منها أو نحو ذلك أصبحت الدار ناقصة.

الفرق بين عقيدة أهل السنة وعقيدة المرجئة في الإيمان

وبهذا نعلم الفرق بين أهل السنة وبين المرجئة, الذين يقولون: إذا وقع الإنسان بمكفر فلا بد من الرجوع إلى اعتقاده, لأننا نقول: إن الإيمان قول وعمل واعتقاد؛ هذه الثلاثة هي الإيمان، إذا أثبتناها هي الإيمان؛ فالكفر يقع بأي واحد منها, فيكفر الإنسان بفعل مكفر ولو لم يقل الكفر, ويكفر الإنسان بقول الكفر ولو لم يفعل بجوارحه الكفر, ويكفر الإنسان باعتقاده الكفر ولو لم ينطق به ويعمله كذلك، فالإنسان يثبت إيمانه بهذه الثلاثة؛ إذا قال: أنا أعتقد بالقلب لكني لا أتكلم بلساني ولا أعمل بجوارحي لا يصح منه هذا، وإذا أثبتنا هذا للإيمان أثبتنا ما يقابله من ورود المكفر عليها, ولهذا نجد تناقضاً في كلام بعض من يتكلم في مسائل الإيمان، فيقول: الإيمان قول وعمل واعتقاد، وإذا جاء عند العمل ووقع الإنسان بمكفر قال: لا أكفره إلا بعد أن أرجع إلى قلبه، إذاً هل ساويت العمل بالاعتقاد أو ما ساويته؟ لم تساوه من جهة الأصل, فالاختلال لديك في تقرير الإيمان أصلاً, ولهذا ينبغي ويجب علينا أن نفهم الإيمان على هذا الوجه, ونفهم كذلك مسائل الكفر الطارئة عليه، ولكن ثمة أمور يأخذ بها العلماء وهي القرائن التي تدفع الكفر, فتدفع أن الإنسان فعل هذا الفعل كفراً؛ مثلاً: جاء إنسان معروف بإيمانه وتوحيده ونحو ذلك ثم جاء إلى موضع أو شجرة يعبدها الناس من دون الله وجدها في طريقه والوقت وقت

فريضة ثم اتجه إلى القبلة وصلى، تعلم أنت أن هذه الشجرة تعبد من دون الله, لكن تعلم أن هذا الرجل رجل صاحب إيمان وتوحيد وممن ينكر مثل هذا الأمر, وتعلم أنه لا يعلم أن هذه الشجرة تعبد من دون الله, وتعلم أيضاً أن الشريعة شرعت سترة للمصلي, ثم جاء واستقبلها فتُعذر بالتماس العذر له؛ لوجود قرائن قوية في هذا, لكن إذا كانت هذه الشجرة معلماً من المعالم يعلمها أهل المدينة كلهم, وترى الناس حولها ينحرون ويطوفون, هل تقول هذا الذي يطوف يبحث عن ضالة؟ وهل نسأل عن نيته؟ الجواب: لا؛ لأنه لا توجد قرينة تدفع عنه ذلك, ولهذا نقول: إن الإيمان هو: قول وعمل واعتقاد, إذا أثبتنا هذا الإيمان وفهمنا أن الإيمان هو هذه الثلاثة نفهم كذلك أيضاً مسائل الكفر الواردة على ذلك.

التفاوت في الإرجاء ومبلغ الغلو فيه

ومسائل الإرجاء يتفاوت فيها الناس, منهم الغلاة الذين يجعلون الإيمان هو اعتقاد القلب فقط، ومنهم من يجعله المعرفة, أن يعلم أن الله عز وجل هو الخالق فقط, وهؤلاء الغلاة من الجهمية وغيرهم, وهذا غاية الضلال؛ لأنهم يدخلون حتى إبليس؛ لأن إبليس لديه معرفة قلبية وفرعون لديه معرفة قلبية، وكفار قريش لديهم معرفة قلبية؛ لأن الله عز وجل يقول عن فرعون ومن شاكله: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ﴾ [النمل:14]، ويقول الله جل وعلا عن كفار قريش: ﴿ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام:33]، إذاً الجحود موجود لديهم في الظاهر والإيمان استقر في قلوبهم, لكن هذه المعرفة وجدت ولم تنفع، وأبو طالب لديه معرفة قلبية, وهو الذي كان يدافع عن النبي ﷺ وربما صرح بهذه المعرفة بلسانه، ولم تنفعه أيضاً؛ لأنه لم ينطق بالشهادتين ولم يعمل بمقتضاها، وقد قال في مدح النبي ﷺ:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا

فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة وابشر بذاك وقر منه عيونا

ودعوتني وزعمت أنك صادق ولقد صدقت وكنت ثم أمينا

وعرضت ديناً لا محالة أنه من خير أديان البرية دينا

إذاً لماذا لم ينطق بالشهادتين ولم يعمل؟

لولا الملامة أو حذار مسبة لوجدتني سمحاً بذاك يقينا

هل نفعت المعرفة القلبية؟ لم تنفعه كذلك, مع أن هذه أبياتاً شائعة في المدح, لهذا لا نثبت الإيمان لشخص يمدح الإسلام ويثني عليه أو يثني على مُحَمَّد أو على دين مُحَمَّد حتى يظهر منه القول والعمل؛ لأنه ما امتاز عن غيره, والمسألة ليست مسألة عاطفية, هذا إيمان ودين شرعه الله عز وجل للأمة ويجب عليها أن تمتثل.

ومنهم من يقول: –وهم دون أولئك الذين يقولون: إن الإيمان هو اعتقاد القلب وقول اللسان ولو لم يعمل الإنسان– وهم على مراتب:

منهم من يقول: إن العمل شرط كمال, ومنهم من يقول: هو شرط صحة, ومن يقول إنه شرط صحة هو أقرب إلى الصواب ممن يقول هو شرط كمال, ومنهم من يقول: إنه لا علاقة له بالإيمان وإنما يزيد به الإيمان وينقص وهذه طوائف الإرجاء, وهي على مراتب, وسبب الخلل في ذلك هو أصل الخلل في معنى الإيمان, ولهذا تجد عبارات العلماء في تعريف الإيمان, يقولون: الإيمان هو: قول وعمل واعتقاد, لا يقولون أركان ولا يقولون واجبات ولا يقولون شروط، هذه التفصيلات والتجزئات وجعل الإيمان أركاناً وشروطاً إنما جاءت بعد ذلك, وصدر عن بعض العلماء بحسن قصد, فتولد عند بعضهم وعند من تلقى عنهم شيء من المعاني غير الصحيحة لمعنى الإيمان ومعنى الكفر.

توحيد الله بالعبادة

قوله: (ولا شبيه له ولا نظير له)، أي: أن الله إله واحد لا إله غيره؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا معبود بحق إلا هو, فهو الرب جل وعلا, الخالق الرازق المحي والمميت, فإذا كان فرداً في ذلك فيجب أن يكون فرداً سبحانه وتعالى في ألوهيته وفي صرف العبادة له، قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن:18]، قيل المراد بالمساجد الأعضاء السبعة، فهي لله, هو الذي خلقها وهو الذي يأمر الإنسان أن توضع, فإذا كان هو ربها سبحانه وتعالى فوجب ألا توضع إلا لله, وقيل المراد بذلك المساجد التي تبنى لأداء العبادة، ((فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا))، يعني: لا تشركوا مع الله عز وجل غيره، وأعظم ما يعصى الله عز وجل به الشرك, ولهذا يقول الله جل وعلا على لسان العبد الصالح في قوله لابنه: ﴿ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان:13]، وفي قول الله جل وعلا: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام:82]، والظلم هنا المراد به الشرك؛ كما جاء في حديث عبد الله بن مسعود عن رسول الله ﷺ.

قوله: (لا إله غيره), يعني: لا معبود بحق إلا الله، قال بتفسير ذلك في هذا المعنى غير واحد من العلماء كابن جرير الطبري رحمه الله في كتابه التفسير قال: ولا شبيه له ولا نظير له ولا ولد له ولا والد ولا صاحبة له ولا شريك له، ولأن الله عز وجل يقول في كتابه العظيم: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص:1–4]، فالله سبحانه وتعالى ليس محتاجاً إلى أحد, وهذه السورة تسمى بنسب الرحمن؛ لأن (كفار قريش قالوا لرسول الله ﷺ: انسب لنا ربك, فأنزل الله عز وجل عليه هذه السورة), أي: أن الله سبحانه وتعالى لا ينتسب إليه أحد من ولد ولا ينتسب إلى أحد من أب أو أم تعالى الله عز وجل عن ذلك, فالله عز وجل هو الأول فليس قبله شيء وهو الآخر فليس بعده شيء, فلا شبيه له كذلك ولا نظير وند له سبحانه وتعالى، ولا صاحبة له ولا شريك.

من صفات الله سبحانه وتعالى

قال المصنف رحمه الله: [ليس لأوليته ابتداء ولا لآخريته انقضاء، لا يبلغ كُنْه صفته الواصفون ولا يحيط بأمره المتفكرون, يعتبر المتفكرون بآياته ولا يتفكرون في ماهية ذاته].

الأول فليس قبله شيء والآخر فليس بعده شيء

قوله: (ليس لأوليته ابتداء ولا لآخريته انقضاء)؛ لأن الله عز وجل هو الأول والآخر، ولا يبلغ كنه صفته الواصفون؛ لأنهم لا يعلمون ذاته ولا يحيطون به علماً؛ لأنه لم يَروه سبحانه وتعالى, والإنسان يعرف الشيء برؤيته وبمعرفة صفاته أو بمعرفة آياته, والله عز وجل لم يره أحد من عباده في الدنيا, وما جاء في رؤية النبي ﷺ ربه فهي موضع خلاف, هل رآه بعينه أم رآه بقلبه, ولما طلب موسى عليه السلام من ربه جل وعلا أن يراه تجلى الله جل وعلا للجبل فجعله دكاً, والله سبحانه وتعالى يراه بعد ذلك في الآخرة من شاء من عباده من أهل الإيمان.

لا يحاط به علما

قوله: (ولا يبلغ كنه صفته الواصفون ولا يحيط بأمره المتفكرون)؛ لأنهم لا يحيطون به علماً؛ لأن علم الله عز وجل واسع، والإنسان ليس لديه من الإدراك الذي أوجده الله عز وجل فيه الآن ما يستطيع به رؤية الله سبحانه وتعالى حتى يعطيه الله عز وجل من القدرة والإمكان ما يستطيع به أن يراه، ولهذا يقول النبي ﷺ: (نور أنَّى أراه)، ويظهر هذا أيضاً في تجلي الله عز وجل للجبل.

قوله: (يعتبر المتفكرون بآياته ولا يتفكرون في ما ماهية ذاته) يروى في الخبر وهو منكر: (تفكروا في آيات الله ولا تفكروا في ذاته, وتفكروا في صفاته ولا تفكروا في ذات الله عز وجل)، فالله سبحانه وتعالى أمر الناس أن يتفكروا في الآيات, أما التفكر في ذات الله سبحانه وتعالى فإنه لا يؤدي بالإنسان إلى معرفة الله سبحانه وتعالى؛ لأن الله عز وجل ليس له مثيل, ولكن يتدبر الإنسان في صفاته من جهة القدرة والقوة والجبروت والعزة وغير ذلك من صفاته, كذلك في أسماء الله سبحانه وتعالى ومعانيها وآثارها على العباد وغير ذلك, أما ذات الله سبحانه وتعالى فإن الإنسان لا يزيده التفكر في ذلك إلا تحيراً؛ لأن الله عز وجل ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ [الشورى:11], والإنسان لا يتفكر ويحاول أن يوجد شيئاً في ذهنه إلا على مثال سابق, والله سبحانه وتعالى ليس له مثيل سبحانه وتعالى.

يقول تعالى كما في آية الكرسي: ﴿ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ

حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ [البقرة:255].

وقد بين الله جل في علاه عظم هذه المخلوقات من السماوات والأرض والكرسي وسعته، فإذا كانت هذه المخلوقات بمثل هذه العظمة فكيف بعظمة الخالق جل في علاه، إذاً فعظمة المخلوق دليل على عظمة الخالق, ودقة وانضباط سير المخلوقات دليل على حكمة الخالق وعنايته جل وعلا وسعته وسعة علمه وإحاطته سبحانه وتعالى.

بعض أسماء الله وعظيم أثرها

الملقي: [العالم الخبير المدبر القدير السميع البصير العلي الكبير].

هذه من أسماء الله سبحانه وتعالى التي للإنسان أن يتدبر في آثارها في الناس، وأن يلتمس آثارها في الكون، إذا كان الله عز وجل قديراً, وكان الله سبحانه وتعالى سميعاً بصيراً, فيقوم الإنسان بمراقبة الله جل وعلا في فعله وقوله, وكذلك في اعتقاده بسعة علم الله سبحانه وتعالى, وفي تدبيره للكون، ينظر آثار ذلك في خلق الكائنات, وكذلك خلق الإنسان حيث أمره الله عز وجل أن يتفكر في نفسه، فقال: ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات:21]، وقال: ﴿ يَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [آل عمران:191]، فأمر الله عز وجل بالتفكر في علو والتفكر في نزول, والتفكر أيضاً في الأحداث العارضة التي لم توجد أصلاً وإنما حدثت بعد ذلك من آثار الله عز وجل بنزول الغيث وإجداب الأرض بعد خضرتها, وجفاف الأرض بعد غناها ومائها, وموت الإنسان بعد حياته, وولادة الإنسان بعد عدمه, وهو يراه بين عينيه.

ويتفكر كذلك في ما يحدثه الله عز وجل على الأمم من إنزال العقاب والبلاء وكيف لطف الله عز وجل بالصالحين، هذه آثار عظيمة، يرى فيها الإنسان من الدقة ومن اللطف والرحمة والقدرة والبطش في إزالة ملك المتجبرين المتكبرين، وانتقام الله عز وجل منهم ما يزيده إيمانا.

وإذا أراد الإنسان أن ينظر المعاني في حلم الله عز وجل وفي صفة الحلم وما يظهر من اسم الله عز وجل الحليم فلينظر في حلم الله عز وجل على ظلم الظالمين، ويرى كيف لطف الله سبحانه وتعالى بعبد فأنجاه وأخرجه كأنما خرج من بين فرث ودم، وكيف أن الإنسان صاحب الذكاء والحذق والبعد عن مواضع الهلاك يهلكه الله جل وعلا ويأخذه وهو في موضع أمان, وينجي الإنسان عند تلاطم الأمواج في بحر وظلمات فيخرجه ولو على عود شجرة في أقصى المحيطات؛ لأن الله عز وجل إذا أراد لعبد نجاة أنجاه, وإذا أراد بعبد هلاكاً أهلكه ولو كان في بروج مشيدة, وإذا أراد الله عز وجل بعبد من عباده غنى أغناه ولو كان في أرض مجدبة, وإذا أراد بعبد فقراً أفقره ولو كان يملك كنوز الأرض, وهذه يتأملها الإنسان فيجدها ظاهرة في أسماء الله سبحانه وتعالى, فمن هذه المعاني ما يظهر للإنسان بلحوقها باسم واسمين وثلاثة وأربعة وخمسة من القدرة والقوة والجبروت والعلو والعزة وغير ذلك من صفات الله سبحانه وتعالى, ومنها ما يتجلى في اسم له دون اسم آخر وذلك بحسب قدرة الإنسان على التدبر والتأمل في مثل هذه الأمور, لهذا نقول: إن المصنف رحمه الله حينما ذكر هذه الأسماء: العالم, الخبير, المدبر, إلى غير ذلك, يريد أن يبين أن الإنسان له أن يتأمل في آثار هذه الأسماء على العباد وآثارها على مخلوقات الله جل وعلا التي تورث

الإنسان إيماناً وثقة بدينه، وتصديقاً أيضاً بما أخبر به رسوله ﷺ.

استواؤه سبحانه على عرشه

قال المصنف رحمه الله: [وأنه فوق عرشه المجيد بذاته وهو في كل مكان بعلمه].

الله سبحانه وتعالى فوق عرشه المجيد بذاته, فبهذا يثبت لله عز وجل علو الذات وعلو الصفات, والعلو بأنواعه لله جل وعلا يثبت من غير أن يُشبَّه أو يمثل أو يكيف سبحانه وتعالى, يقول الله جل وعلا: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [طه:5]، ويقول الله جل وعلا: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ﴾ [البقرة:29]، لله عز وجل استواء على عرشه واستواء إلى السماء، ثم خلقها الله جل وعلا بعدما خلق الأرض وما فيها سبحانه وتعالى, لهذا نقول: إن علو الله جل وعلا نثبته من غير تكيف ولا تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيل، نثبته لله ونقول: هو فوق العرش سبحانه وتعالى بذاته بائن من خلقه, ومعنى بائن من خلقه نفي لعقيدة أهل الحلول, الذين يقولون: إن الله جل وعلا حال في كل مكان, لماذا؟ راموا ابتداءً تنزيهاً، فأرادوا أن ينزهوا الله جل وعلا ببعده عن خلقه؛ لأنهم يرون الإنسان إذا بعُد لا يعلم, فأرادوا أن يجعلوا الله عز وجل حاضراً في كل مكان ثم نظروا في الآي في كلام الله عز وجل فوجدوا مشتبهات تعضد بعض هذه الشبهات التي تقع لديهم، مثل: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ [الحديد:4]، فحملوا ذلك على نفي صفة العلو لله سبحانه وتعالى والاستواء, وأولوها بتأويلات عن يمين وشمال, والله سبحانه وتعالى له العلم الكامل في هذا، يعلم ما كان ويعلم ما يكون ويعلم ما سيكون ويعلم ما لم يكن لو كان كيف يكون, وهذه المستحيلات أو المتنافيات أو المتناقضات التي تقع في ذهن الإنسان ولا يتخيلها، مثل اندماج الليل مع النهار, والمتناقضات كالماء والنار، الله سبحانه وتعالى قادر أن يخرج هذه من هذه وهذه من هذه, ويعلم الله سبحانه وتعالى آثارها, كل ذلك لله جل وعلا, يعلم الآثار ويعلم الأحوال، وما لم يقدره الله سبحانه وتعالى لو أراده يعلم ما هي آثاره، كل ذلك في علمه سبحانه وتعالى, فهو عالم للغيب والشهادة, ولهذا لا نقول إن استواء الله عز وجل على عرشه كذا وكذا فنكيف أو نمثل, باعتبار أن الإنسان له صفة في جلوسه أو استوائه أو نحو ذلك، ولا نعطل هذه لانقداح بعض المعاني القبيحة التي تكون في أذهان بعض الناس، كما يجري على ذلك المبتدعة فيقولون: إن من أثبت صفة الاستواء لله سبحانه وتعالى يلزم من ذلك أن الله عز وجل محتاج إلى شيء يستوي عليه تعالى الله عز وجل عن ذلك، نحن نثبت ما أخبر الله عز وجل عنه ولا نزيد, ونقول: إن الله عز وجل لا يحتاج إلى شيء ويحتاج إليه كل شيء، ومن يقولون أيضاً – تجاوزون في ذلك, ويقولون: إذا قلنا: إن الله عز وجل يستوي على العرش, هل يلزم من هذا أن العرش أكبر من الله سبحانه وتعالى, فالإنسان إذا كان جالساً على عرشه فإن العرش يكون مساوياً له أو أكبر منه أو أقل منه فكيف يكون مثل هذا الأمر؟ وهذا كله تشبيه طرأ عليهم قياساً على أحوالهم, ولو فهموا قول الله جل وعلا: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ [الشورى:11]، لارتاحوا من كل هذه الأقيسة كلها, ولكن جروا على هذا الأصل فورد عليهم ونشأ كثير من المعاني الفاسدة, ... منهم خرج طوائف فعطلوا هذه الصفات, ومنهم من شبهوا واستمروا على ذلك التشبيه, ولهذا نقول: الله جل وعلا فوق عرشه بذاته وهو في كل مكان بعلمه، كما قال سبحانه: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ [الحديد:4]، يعلم الله سبحانه وتعالى أحوال العباد، ويعلم ما في نفوسهم, فلا يستتر الإنسان ببيته أو بظلمة أو بلباس عن الله جل وعلا, وهذا

إن رآه الإنسان في المخلوقين فالله عز وجل ليس كذلك, يعلم الله عز وجل الغيب والشهادة, ولهذا ينتج عند كثير من الناس أنواع من الضلال في عدم فهم ذلك أو القياس الفاسد من المعاني الخاطئة، فمنهم من يقول: إن الشريعة تصلح للزمن الأول ولا تصلح للزمن التالي أو لهذا الزمن؛ لأنه يرى أن الإنسان يضع نظاماً اليوم ربما لا يصلح للسنة التي تليها لحدوث نوازل جديدة لم يشاهدها الإنسان, ولكن الله سبحانه وتعالى يعلم حال النبي ﷺ ويعلم الغيب على حد سواء, لا يزيد علم الشهادة لشهودها, ولا ينقص علم الغيب لغيابه عنه, ولهذا وصف الله عز وجل وسمى نفسه بعالم الغيب والشهادة, وقد حكم وقضى وأمر بالعمل بشرعته جل في علاه لعلمه الكامل سبحانه وتعالى.

نتوقف عند هذا القدر، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا مُحَمَّد.

الدرس الثاني

خلق الله الخلق وعرفهم بنفسه وصفاته، والواجب علينا إمرار الصفات على ظاهرها بلا تشبيه ولا تكييف ولا تعطيل، كما يجب على كل مسلم الإيمان بنبوة مُحَمَّد ﷺ وعموم رسالته، والإيمان بالقدر خيره وشرة، وكذلك اليوم الآخر بما فيه من أحداث وأولها قيام الساعة ثم الحساب والميزان والحوض والصراط وتقاضي الحقوق والذي يكون قبل دخول الجنة.

- **شمول علم الله سبحانه**

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا مُحَمَّد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

قال المصنف رحمه الله: [وأنه فوق عرشه المجيد بذاته وهو في كل مكان بعلمه، خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه وهو أقرب إليه من حبل الوريد، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين].

الله جل وعلا هو الذي خلق الخلق، ومنهم الإنسان، وخلق الله عز وجل الأشجار والأحجار والرمال والجبال، وخلق الله عز وجل البحار والأشجار والأحجار، ويعلم حقيقتها وتفاصيلها ودقائقها وما تؤول إليه، وتكوينها، والله سبحانه وتعالى جل وعلا يعلم ما خلق، ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ [الملك:14], بلى، بل نقول: إن الله سبحانه وتعالى يعلم جل وعلا حقائق ما لم يوجده الله جل وعلا لو أوجده ما يكون من آثاره، والله سبحانه وتعالى يعلم حال الخليقة قبل خلقها، ويعلم أحوال الخلق، ويعلم سبحانه وتعالى ما يتصرفون قبل خلقهم، فالله عز وجل قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم، وقدر الله عز وجل مقادير الخلق قبل أن يخلق الله عز وجل السماوات والأرض، والله سبحانه وتعالى أقرب لعبده من حبل الوريد، ويعلم الله جل وعلا أيضاً ما توسوس به نفسه من خواطر وهواجس وأحاسيس ومشاعر, مما يجده الإنسان في نفسه، وربما علم الإنسان ما في نفسه أو لم يعلم، فربما ما يتخالج من نفس من أفكار أو يطرأ عليه من مشاعر أو وساوس لا يعلم الإنسان كنهها وحقيقتها، فيتوجس

الإنسان من نفسه شيئاً ويقول: لا أعلم ما في نفسي، ولا يعلم ما أوجده في نفسه من حرج أو ضيق أو هم، فيحزن ولا يدري لماذا حزن، أو اهتم ولا يعلم ما سبب همه، يعلم الله عز وجل ما أهمه ولو لم يعلمه الإنسان بنفسه، والله سبحانه وتعالى يعلم ذلك كله جل وعلا، وهو الذي خلق، و ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ [الملك:14]. نعم.

قال المصنف رحمه الله تعالى: [على العرش استوى، وعلى الملك احتوى، وله الأسماء الحسنى والصفات العلى].

والله سبحانه وتعالى مالك الملك, وعلى عرشه استوى، وعلى الملك احتوى, من جهة قدرته وتصرفه، وعدم خروج ذلك عن إرادته سبحانه وتعالى، وهو الذي يقلب المواد، ويقلب سبحانه وتعالى حقائقها وأحوالها وتغيراتها، ويعلم تراكيبها مما هي عليه، وما لم تكن عليه، لو امتزجت مع غيرها كيف تكون حالها، ولهذا لله جل وعلا العلم المطلق في ذلك. نعم.

قال المصنف رحمه الله تعالى: [لم يزل بجميع صفاته وأسمائه, تعالى أن تكون صفاته مخلوقة وأسمائه محدثة].

له سبحانه وتعالى الأسماء الحسنى، وله الصفات العليا، وكلها حسنى، فكل أسمائه حسنى وكل صفاته عليا، سبحانه وتعالى. نعم.

كمال صفات الله تعالى

قال المصنف رحمه الله تعالى: [كلم موسى بكلامه الذي هو صفة ذاته, لا خلق من خلقه].

خلق الله عز وجل الخلق منه ما ذكره الله عز وجل لنا ومنه ما لم يذكره جل وعلا، ولهذا يقول النبي ﷺ في الذكر عند الرفع من الركوع: (ملئ السموات والأرض، وملئ ما بينهما, وما شئت من شيء بعد)، فلله سبحانه وتعالى من الخلق ما نعلمه وله من الخلق ما لا يعلمه إلا هو سبحانه وتعالى.

وصفات الله عز وجل ليست بمخلوقة، تعالى الله عز وجل عن ذلك؛ لأن الذات هي الصفات، والصفات هي الذات، وإذا قلنا إن الصفات مخلوقة، فهذا يعني أن الذات مخلوقة, تعالى الله سبحانه وتعالى عن ذلك، ولهذا نقول: إن الله عز وجل متفرد وواحد وهو الخالق الذي لم يخلق، وهو الواحد الفرد الذي لا ند له ولا نظير ولا شريك له ولا مثيل، والله سبحانه وتعالى في ذلك كله متفرد لا يجوز لأحد أن يصفه بشيء من الأوصاف إلا بما ثبت به الدليل من كلام الله أو كلام رسول الله ﷺ؛ لأن أمثال هذه الأشياء توقيفية, ومردها إلى السمع، من النص من كلامه سبحانه وتعالى وكلام نبيه وكل ذلك إليه. نعم.

صفة الكلام لله سبحانه

قال المصنف رحمه الله تعالى: [وتجلى للجبل فصار دكاً من جلاله، وأن القرآن كلام الله ليس بمخلوق فيبيد، ولا صفة لمخلوق فينفد].

ولله عز وجل كلام، ومن كلامه القرآن، وله من الكلام ما لا يحصيه إلا هو سبحانه وتعالى، موصوف سبحانه وتعالى بالكلام، يتكلم جل وعلا متى شاء، وفيما شاء، وكيفما شاء جل وعلا، وينزل كلامه سبحانه وتعالى على من شاء، وكلامه صفة من صفاته، لا يجوز القول بأن كلام الله عز وجل مخلوق، وذلك أن كلامه صفة من صفاته، وإذا قلنا بأن كلام الله عز وجل مخلوق يلزم من ذلك خلق الذات؛ لأن الكلام صفة من صفاته سبحانه وتعالى، وكلامه جل وعلا منه القرآن، ومنه التوراة، ومنه الإنجيل، ومنه الزبور، وما في صحف موسى وإبراهيم وغيرها من الكتب، ومنها ما لم ينزله الله عز وجل على أحد من عباده، فالله سبحانه وتعالى يتكلم ولا يزال متكلماً متى شاء، وكلامه سبحانه وتعالى صفة من الصفات، لا نقول كما يقول المبتدعة بأن كلام الله عز وجل مخلوق، وذلك كفر؛ لأن خلق الصفة خلق للموصوف، ولا نقول كما يقول المتكلمون؛ بأن الكلام معنى قائم في نفس الله عز وجل خلقه الله عز وجل خارجاً فأوجده، وهم يعبرون عن ذلك بتعبيرات، منهم من يقول: إن الله عز وجل خلقه خارجاً عنه وهو المعنى القائم في ذات الله عز وجل، خلقه الله عز وجل ليعبر عما في نفسه، والله جل وعلا ما قال ذلك وإنما نسب الكلام إليه كما في قوله جل وعلا: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ﴾ [التوبة:6]، فهو كلام الله جل وعلا والزيادة عن ذلك ضلال، ولا نقول إن كلام الله سبحانه وتعالى كذلك أوجده الله عز وجل وقذفه في جبريل, وجبريل قذفه في روح مُحَمَّد أو روع مُحَمَّد ﷺ؛ لأن هذا معنى زائد عما جاء به الدليل، ومن قال: إن كلام الله مخلوق فقد كفر، ولو قال: إن حرفاً من كلام الله عز وجل مخلوق، وما يشكل عند بعض المبتدعة الذي دعاهم لأمثال هذه المعاني، الذين يقولون: إن كلام الله سبحانه وتعالى يوجد ويحفظ في الصدور، وتتلفظ به الألسن، ويكتب في الصحف والألواح، فهذا كلام الله جل وعلا فكيف يصل إلى مثل هذه الحال؟ نقول: إن كلام الله عز وجل يحفظ في الصدور، وقد ذكره الله جل وعلا في كتابه العظيم، ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ [العنكبوت:49]، فهو في صدورهم وهو كلام الله سبحانه وتعالى ولا يزاد عن ذلك، وما يتكلم به الإنسان كلام الله جل وعلا، ولكن الصوت صوت القارئ والكلام كلام البارئ، فتحريك الشفتين مخلوق، ولعاب الإنسان وهواؤه مخلوق، ولكن القول الذي يتلفظ به هو كلام الله والصوت للإنسان، كذلك بالنسبة لما يدون في الألواح والصحف، فما فيه من أحبار وأوراق هذه مخلوقة، والكلام كلام الله سبحانه وتعالى، ولهذا نقول: إن الزيادة عن ذلك إحداث وابتداع وضلال في الدين، وإنما دخل الناس في أمثال هذه التفصيلات في مسائل كلام الله جل وعلا لما توسع المبتدعة في تحليل أمثال هذه المسائل، وكان السلف الصالح عليهم رضوان الله من الصحابة في سلامة من ذلك؛ لأنهم كانوا يمرون ما جاء من النصوص من غير أن يصرفوها على غير ما أراده الله جل وعلا، فلما تكلف الناس التأويل وتوليد المسائل وغير ذلك أدخلوا أهل العلم في أمثال هذه التفاصيل؛ لينفوا عن الدين الشبهات، ويزيلوا ما ربما يصد به عن الحق، ولهذا كان السلف الصالح في ابتداء الأمر ينهون عن الخوض في مثل هذا حتى تكلم به الضلال، ولهذا بعض الأئمة يقول: من قال: لفظي بالقرآن مخلوق فهو كافر، ومن قال: إن لفظي بالقرآن ليس بمخلوق فهو مبتدع؛ لماذا؟ لأن هذا شيء جديد، لماذا تدخل في أمثال هذه التفاصيل، لماذا تخوض في أمثال هذه التفاصيل وأنت في عافية منها؟ لكن لما ولدوها وقرروها قام العلماء عليهم رحمة الله تعالى بتقريرها وتفصيلها وإزالة الشبهات منها، وهي الفتنة العظيمة التي وقعت للإمام أحمد عليه رحمة الله حينما ظهرت, وقويت شوكة الجهمية حينما قالوا: إن كلام الله عز وجل مخلوق، وحدث في ذلك من المناظرات والفتنة والابتلاء لجماعة من أئمة السنة على رأسهم الإمام أحمد عليه رحمة الله، ولهذا نقول: إن كلام الله عز وجل موصوف بأنه الكلام, وكذلك

قول الله جل وعلا كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ﴾ [آل عمران:55]، ﴿ وَقَالَ اللَّهُ ﴾ [المائدة:12]، فالله عز وجل يقول ويتكلم، وكذلك أيضاً ينبئ عباده.

وهنا في قوله: وأن القرآن كلام الله ليس بمخلوق فيبيد؛ لأنه لا يبيد إلا المخلوق، وصفات الله سبحانه وتعالى هي ذاته جل وعلا، وإذا قلنا بأن صفة من صفات الله عز وجل تبيد، فهذا يرجع إلى الموصوف كذلك، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. نعم.

قال المصنف رحمه الله تعالى: [وأن القرآن كلام الله ليس بخلوق فيبيد، ولا صفة لمخلوق فينفد].

وذلك أن كلام المخلوق ينفد، له حدود، له بداية وله نهاية، وكذلك أيضاً كتابة الإنسان تنفد، الأحبار تنفد، الأقلام تنقضي؛ وذلك لقلة كلام الإنسان فله بداية وله نهاية، أما كلام الله سبحانه وتعالى ولو جعل الإنسان ما في الأرض من شجر أقلام والبحار مداد ما نفدت كلمات الله سبحانه وتعالى، وبهذا نعلم أن ما يقع في أذهان بعض المبتدعة من القول بخلق كلام الله عز وجل إنما حملهم ذلك التشبيه الذي طرأ على عقولهم فشبهوا كلام الخالق بكلام المخلوق.

الإيمان بالقدر

قال المصنف رحمه الله تعالى: [والإيمان بالقدر خيره وشره، حلوه ومره، وكل ذلك قد قدره الله ربنا، ومقادير الأمور بيده، ومصدرها عن قضائه].

شمول قدر الله

والله جل وعلا جعل الإيمان بالقدر ركناً من أركان الإيمان؛ كما جاء في حديث أبي هريرة في الصحيحين وغيرهما لما سأله جبريل عن الإيمان، قال: (الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، وبالبعث بعد الموت، وبالقدر خيره وشره)، فالله سبحانه وتعالى قدر مقادير الخلائق من جهة أحوالها وتقلباتها، وأعمارها، وابتدائها وانتهائها، وكذلك أيضاً تحولاتها، وقدر الله عز وجل مقاديرها من جهة الكسب، وقدر الله عز وجل لها الخير والشر، وقدر الله عز وجل الأسباب، وخلق فيها المسببات لتظهر الآثار فيه، وهذا لدقة صنع الخالق سبحانه وتعالى في الخلق، لا تخرج المخلوقات عن إرادة الله جل وعلا ولو قيداً يسيراً، ولا يتأخر الناس عما قدره الله عز وجل لهم من الآجال، ولو لحظة، ولا يسبقون آجالهم بالوجود من ولادة وحياة إلا بما قدره الله سبحانه وتعالى لهم، والله جل وعلا قدر المقادير وكتب الآجال وتقلبات الحياة بيده سبحانه وتعالى قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة.

العلاقة بين إثبات القدر وصفة العلم لله سبحانه

قال المصنف رحمه الله تعالى: [وكل ذلك قد قدره الله ربنا ومقادير الأمور بيده، ومصدرها عن قضائه، علم كل شيء قبل كونه فجرى على قدره، لا يكون من عباده قول ولا عمل إلا وقد قضاه، وسبق علمه به، ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك:14]].

وفي هذا نقول في إثبات القدر لله سبحانه وتعالى: يلزم من ذلك إثبات العلم، ومن نفى القدر فإنه يلزم منه نفي العلم، هذا من جهة النظر، ولكن هناك من ينفي القدر ولا ينفي العلم، وهذا ضرب من ضروب التضاد، ولهذا نقول: إن الله عز وجل يعلم كل شيء مما مضى ومما يأتي ومما هو حال في هذا الوقت، والله سبحانه وتعالى يعلم وهو الذي قدر، والعلم يتفرع عنه التقدير، والتقدير لازم للعلم؛ لأنه لا يقدر الشيء إلا من علمه، وهذا لكمال الله سبحانه وتعالى.

الانحراف في مسائل القدر

إن الذي حمل طوائف البدع في مسائل القدر على الانحراف أنه حملهم ذلك شيء مما وقع في نفوسهم من طلب تنزيه الله جل وعلا، فكانت الطوائف في ذلك طرفين ووسط، غلاة فقالوا: إن الله سبحانه وتعالى جبر الخلق، وهم مجبورون على أفعالهم وليس لهم اختيار في أفعالهم، وأرادوا من ذلك قالوا: كيف يكون للإنسان مشيئة ويخرجون عن مراد الله سبحانه وتعالى؟ أرادوا تنزيهاً فوقعوا في أمثال هذا الضلال، وقع في هذا الغلاة من الجهمية الذين يقولون: إنه لا يكون في الكون إلا ما يريده الله عز وجل شرعاً وقدراً، أما الوقوع القدري فهذا لا خلاف في ذلك، أما الشرعي وهو ما يريده الله عز وجل فقد يكون في الكون ما لا يريده الله جل وعلا شرعاً، الله عز وجل أراد للناس الصلاة والصيام، لكن ألا يقع في الكون ما لا يريده الله عز وجل من ترك الصلاة؟ نعم، لكن هل هذا منافاة للإرادة الكونية أو للإرادة الشرعية؟ للإرادة الشرعية؛ لأن الله عز وجل لو أرادهم أن يفعلوا لجعلهم يفعلوا، ولكن جعل لهم اختياراً عليه يعذبون.

المخلوقات بين التخيير والتسيير

بناء على ما سبق نقول: إن المخلوقات لله عز وجل على نوعين:

النوع الأول: مخلوقات مسخرة مسيرة لا اختيار لها؛ وهذا كالكواكب والنجوم والأفلاك وغيرها, لا تخرج عن إرادة الله عز وجل الكونية، ولا تخاطب بإرادة شرعية.

النوع الثاني: ما له اختيار؛ كالإنس والجن، وكالملائكة، والملائكة لهم اختيار؛ لأن الله عز وجل مدحهم ولا يمدح إلا من له اختيار بالموافقة أو المخالفة؛ لأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وذلك لشدة الطاعة، إلا أن الله سبحانه وتعالى لم يجعل من الابتلاء المعترض لهم كما جعله لبني آدم، وذلك من أمور النفس والشيطان وغير ذلك التي تحرف الناس، ولهذا الله سبحانه وتعالى مدحهم على ذلك ولا يمدح إلا من له اختيار فوافق، ولهذا نقول: إن الإنس والجن والملائكة لهم اختيار، فوقع في الإنس والجن عصيان، ومخالفة لأمر الله سبحانه وتعالى, وهؤلاء لهم مشيئة ويخاطبون بالإرادة وبالأمر الشرعي؛ لأن الإرادة

والأمر على نوعين: إرادة وأمر كوني، والثاني إرادة وأمر شرعي، الأول كوني لا يخرج عنه، والثاني: شرعي للناس فيه اختيار، قد يخرجون عنه، وقد لا يخرجون عنه، ومن خرج استحق العقاب والعذاب.

الرد على الجبرية

والطائفة التي تقول: إن الناس مجبورون ومسخرون أيضاً؛ أرادوا من ذلك تنزيه الله سبحانه وتعالى أن يقع ما لا يريد، وحينئذ هؤلاء أفرغوا الشريعة من حقيقتها، فلماذا ترسَل الرسل؟ ولماذا تنزل الكتب؟ ولماذا يقاتل النبي ﷺ؟ ومن قاتل من المشركين, هؤلاء ما هي أحوالهم؟ من عبدوا الأصنام والأشجار والأحجار ما هي حالهم؟

قالوا: هؤلاء ما عبدوا إلا الله، ثم قالوا: إن الله عز وجل حال في كل مكان، قالوا: حال حتى في الأصنام والأحجار، فإذا توجه الإنسان للصنم والحجر فقد توجه إلى الله، فجعلوا الكون يدور حول نفسه، بمعنى: أن ما في الكون إلا الله، حتى ضل منهم من ضل في هذا وجعل في ذلك جملة من اللوازم، في أن الله عز وجل حال في كل مكان ليقع لديهم ما يسمى بتبرير الشرك في الأرض والكفر، وما يتعلق بأمر الجنة والنار يتأولونها كذلك, وهذا فيه تعطيل لكثير من أحكام الله عز وجل وشرائعه.

الرد على القدرية

الطائفة الأخرى أو الطائفة الثانية: الذين قالوا: لا يوجد قدر أصلاً، ومنهم من ينفي العلم، وهؤلاء الطائفة التي تنفي العلم قد اضمحلت، ولا قائل بذلك، ولكن نقول: إن الله عز وجل يعلم وهو المقدر جل وعلا، الذي حملهم على نفي القدر، قالوا: والله عز وجل يقدر على عباده الأقدار من خير وشر ثم يعذبهم على ذلك كيف يكون هذا؟ وهذه من المسائل التي وقع في لوازمها كثير من الضلال عند أهل البدع، قالوا: فالله عز وجل يقدر على عباده الخير، ولا يخرجون عن إرادته، إذا أثبتنا القدر يلزم من ذلك أنهم مسيرون ولا اختيار لهم، وإذا قلنا بهذا فيلزم منه أن الله عز وجل يأمر الإنسان ويلزمه بشيء ثم يعذبه عليه، قالوا: وهذا ينافي عدل الله سبحانه وتعالى.

أهل السنة يقولون: إن لله عز وجل مشيئة، ولعبده مشيئة، والله سبحانه وتعالى جعل للإنسان مشيئة واختياراً بعلمه سبحانه وتعالى، وهذه المشيئة هي التي يعاقب عليها وأيضاً يثاب عليها الإنسان، ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الإنسان:30]، فلهم مشيئة لكن بعد مشيئة الله سبحانه وتعالى.

وأما ما يتعلق بمن ينفي القدر تنزيهاً لله سبحانه وتعالى فنقول: إن الله عز وجل قدر المقادير وجعل للإنسان مشيئة يعاقبه على مخالفة الأمر الشرعي بمشيئته, لا لمخالفته لقدر الله عز وجل وقضائه، وينبغي أن نعلم أن من حكم الله سبحانه وتعالى ما لا يدركه الإنسان ولا يحصيه، وذلك في أمثال هذه القضية وهي قضية القدر، ولهذا يقول أبو حنيفة رحمه الله لما سئل عن هذه المسألة وهي مسألة القدر قال: هذه مسألة مقفلة وضاع مفتاحها.

ويقول ابن تيمية رحمه الله: هذه المسألة ما من أحد إلا وفي نفسه حسكة, يعني: في شيء من معانيها ولكنه لا يدرك ذلك؛ لأن الحقائق تتعلق بإدراك الإنسان، وعقل الإنسان، هو حاسة من الحواس الموجودة في ذات الإنسان، ونفس الإنسان هي نوع من المدركات، منها ما يدرك الإنسان الحقيقة ومنها ما لا يدركه، الإنسان إذا قلنا: إن عقل الإنسان وذهنه يستوعب شيئاً معيناً كحال هذا الكأس، فالكأس لا يمكنه أن يستوعب البحر، ولو أفيض إليه سيطويه ثم لا يستفيد شيئاً، ولهذا نقول: إن من حكم الله سبحانه وتعالى ما لا يدركه العقل ويحجبه الله عز وجل لعدم إدراكه, ولو أعطاه إياه لزاده تحيراً، ولهذا يقول بعض العلماء: إن من الحقائق كلما زاد الإنسان فيها تأملاً ازداد تحيراً.

البحث في مسائل القدر وعللها

إن الإنسان حينما ينظر في الشمس هل يزداد بصيرة أو يزداد ألماً وتحرقه الشمس ولا يستفيد؟! كذلك من حكم الله عز وجل ما تحرق الأذهان والعقول، لأننا لو قلنا: إن الإنسان يدرك كل حكمة فما الفرق بين علم الخالق وبين علم المخلوق؟ ولهذا ينظر الإنسان في مكتشفاته وإدراكه وما يفتح له وكذلك من تصرفات أهل العمل في الماديات وغير ذلك ما يعجب الإنسان منه, ثم بعد ذلك يستسيغه ويرى أنه شيء عادي ثم يبحث عن غيره، إذاً اندهاش الإنسان لا ينتهي, ومنه ما يدركه ومنه ما لا يدركه، وأمره الله عز وجل بأن يكل العلم إليه، وهل كل شيء يستطيع أن يسمعه الإنسان؟.. لا، ومن الأصوات ما لو أراد الإنسان أن يسمعه لصعق ومات؛ ولهذا إذا نفخ في الصور يصعق من في السماوات والأرض بسبب ماذا؟ أنه خارج طاقة الإنسان، خارج طاقة الإدراك، كذلك الضوء، من الضوء ما لو فتح على الإنسان لزال بصره, ومن الحكم أيضاً ما لو فتح وأفيض على العقول لتحيرت ولم تدرك من ذلك شيئاً، لهذا نقول: إن إدراك الإنسان وحواسه مثلاً لها إدراك معين كحال الكأس، ونقول: خلق الإنسان لا يستوعب أمثال هذه الحكمة؛ ولهذا الله عز وجل يحجب حكماً عظيمة عن عقل الإنسان أن يدركها، ولو أراد وقال: أريدها كحال الإنسان يقول: ضع البحر هنا, فلو وضع فيه لانغمس وتاه؛ ولهذا المتكلمون الذين يطلبون العلل للأحكام الشرعية والبحث عنها يعيشون في دوامات ثم يرجعون إلى دين وعقائد العجائز، لأن الله عز وجل ما حجب أمثال هذه العلل إلا لأن العقول لا تدرك، ولهذا ينبغي للإنسان إذا سمع شيئاً وعجز عن إدراكه هل له أن ينفيه وقد ثبت به النص أم يقول سمعنا وأطعنا؟ يقول: سمعنا وأطعنا؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد جعل لكل شيء من أخباره دليلاً قائماً في الكون، ولكن ربما الإنسان يدركه وربما لا يدركه، فكفار قريش لما أخبرهم النبي ﷺ أنه أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، لم يدخل هذا في دائرة التصديق البشري في ذلك الزمان، ولما لم يدخل في أذهانهم كفروا وعاندوا وتهكموا بعقولهم، وفي زماننا هذا ممكن، فلو وجد قرشي في زماننا لن ينكره.

إذاً الذي نفى ذلك ووصف المثبت بالجنون لو كان في زماننا لأثبت ذلك ووصف النافي بالتخلف، أليس هو عقل واحد؟ هو عقل واحد, ولكنه قدم الإيمان بالمشاهدة على الإيمان بالغيب، ولهذا نقول: إن الإنسان إذا لم يدرك شيئاً من حقائق الشريعة وعللها عليه أن يسلم لا أن يقول لم أجد علة في ذلك؛ لأنه يريد أن يحاكم علم الله عز وجل في الغيب على علمه القاصر في المشاهد.

مذهب أهل السنة في القضاء والقدر

ومذهب أهل السنة والجماعة في مسألة القضاء والقدر أن الله عز وجل يقضي لعباده ويقدر لهم تقديراً ولا يخرجون عن ذلك التقدير في أمر تصرفات الكون, وجعل الله عز وجل عليهم أمراً وقضاء شرعياً، ولهم مشيئة بالعمل وعدمه ويثابون على ذلك.

قال المصنف رحمه الله تعالى: [يضل من يشاء فيخذله بعدله, ويهدي من يشاء فيوفقه بفضله, فكل ميسر بتيسيره إلى ما سبق من علمه وقدره من شقي أو سعيد, تعالى أن يكون في ملكه ما لا يريد, أو يكون لأحد عنه غنى أو يكون خالق لشيء إلا هو].

الناس في العمل ميسرون لما خلقوا له، وهذا ما قاله النبي ﷺ لعمر بن الخطاب قال: (اعملوا فكل ميسر لما خلق له)، ولله عز وجل في ذلك حكم, وله جل وعلا مقادير، يعلم أحوال العباد واختيارهم وما في نفوسهم ومطامعهم وما يعزمون عليه وغير ذلك، فيجعل الله عز وجل مقادير الخلق وفق علم دقيق سبحانه وتعالى لا يحيدون عنه ولا يخرجون.

الأنبياء وورثتهم وإقامة الحجة على الناس

قال المصنف رحمه الله تعالى: [رب العباد ورب أعمالهم, والمقدر لحركاتهم وآجالهم، الباعث الرسل إليهم لإقامة الحجة عليهم].

الله سبحانه وتعالى يرسل الرسل وينزل الكتب لإقامة الحجج على العباد, ولا يعذب أحداً إلا وقد قامت عليه الحجة، يقول الله جل وعلا في كتابه العظيم: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء:15]، وأمر نبيه ﷺ ألا يواجه أحداً أو يقتله إلا وقد أقام عليه الحجة؛ كما في قوله عليه الصلاة والسلام كما جاء في الصحيح: (أمرت (والآمر هو الله) أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله)، يقاتلهم وقد علمهم قبل ذلك كما في قوله جل وعلا: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾ [التوبة:6]، يعني: أسمعه كلام الله ليتأمل ويتدبر, وهذا هو الواجب على الأنبياء وورثة الأنبياء والبلاغ للناس، ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ ﴾ [النور:54]، ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ [المائدة:67]، وهي الرسالة التي جعلها الله عز وجل على الأنبياء واجبة, وعلى ورثتهم كذلك أن يبلغوا الحق للناس، وكلما كان الإنسان بالحق أبصر كان العقاب عليه عند المخالفة أعظم، ولهذا ينبغي للإنسان أن يعلم أن الله عز وجل إذا وفقه إلى شيء من العلم أن الله أقام عليه الحجة، وإذا وفقه إلى علم وحرمه العمل فليعلم أن الله أراد به شراً؛ لأنه أراد أن يزيده في العلم ويعطله في العمل؛ حتى تشتد عليه العقوبة، ولهذا من أعلم الخلق إبليس، هذا من جهة العلم, وهو أقلهم أو معدوم العمل في الخير؛ ولهذا كان أشد الخلق عذاباً يوم القيامة، ولهذا من كثر علماً وقل عملاً فهو أكثر الخلق شبهاً بإبليس، ومن كثر علماً وكثر عملاً أقرب الناس شبهاً بمن؟ بالأنبياء لأنهم أكثر الخلق أو أكثر المكلفين علماً بالله سبحانه وتعالى وكذلك عملاً وامتثالاً لأمر الله جل وعلا.

الفرق بين إقامة الحجة وفهمها

ينبغي أن نفرق بين إقامة الحجة وفهمها، فإقامة الحجة هي: إسماع الدليل الذي يلقى على الإنسان على لغة يفهمها لو أراد أن يفهم، هذا به تقوم الحجة، أما فهم الحجة فمرده إلى القلب، فأنت إذا خاطبت أحداً بلغة يفهمها فقد أقمت عليه الحجة إذا كان مثله يفهم، لكن لو خاطبت الإنسان وهو مجنون, أو خاطبت إنساناً وهو نائم, فلا تقم عليه الحجة, لأنه لا بد أن يكون حاضراً، لكن لو خاطبت الإنسان بلغة لا يفهمها وهو حاضر الذهن؛ كخطاب العربي للأعجمي والأعجمي حاضر الذهن لم تقم عليه الحجة.

ثم أيضاً في قول النبي ﷺ: (والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا أدخله الله النار)، هذا من قامت عليه الحجة، لأن النبي ﷺ قال: (لا يسمع بي)، معنى السماع أن يسمع بمحمد لا بغيره، فإذا سمع أحد من اليهود والنصارى بمحمد ولكن قيل له: هذا مفكر عربي أو هذا قائد عسكري لم يسمع بمحمد بل سمع بغيره، فما قامت عليه الحجة حتى يسمع بأن النبي ﷺ نبي أرسله الله جل وعلا إلى الناس كافة، ولهذا نقول إن الحجة تقوم بالسماع بمحمد ﷺ كما أراده الله عز وجل له لا كما يصل إلى أذهان الناس مشوهاً، لهذا ربما بعض الطوائف أو بعض الملل يصل إليه أن مُحَمَّداً إما قائد عسكري أو مفكر أو قائد جيش أو جند، فلا يسمع بمقام النبوة أو كونه يوحى إليه،ولهذا نقول: إن النبي ﷺ في قوله: (لا يسمع بي أحد من هذه الأمة)، المراد بذلك هو السماع الشرعي الحقيقي.

أما فهم الحجة فليس بمعتبر؛ لأن مرده إلى الباطن, ولا ندري هل الرجل معاند أو فاهم, أعطيناه مرة ومرتين وهو يقول: لم أفهم! هل نبقى معه عشرات السنين حتى يفهم، قوم شعيب قالوا له: ﴿ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ ﴾ [هود:91]، يعني: ما نفهم، فلم يعذروا بذلك ونزل عليهم العذاب، لهذا نقول: نحن مكلفون بإيصال الحجة وإقامتها على وجه يفهمها لو أراد أن يفهم، ولهذا كفار قريش كانوا يضعون أصابعهم في آذانهم ويستغشون ثيابهم أليس كذلك؟ إذاً لا يريد السماع فماذا نصنع به وهو لا يريد أن يسمع, ولا يريد أن يفهم، على هذا نقول: قامت عليه الحجة، لهذا من الناس من يُعرض، ومن يُعرض قامت عليه الحجة، كذلك أيضاً تقوم الحجة على العامة إذا علم الخاصة، ولهذا النبي ﷺ يبعث بكتابه إلى كسرى وقيصر, ولا يأتي إلى النصارى واحداً واحداً إذا كانوا تحت راية ولواء واحد، ولهذا النبي ﷺ في غزوته كان يأتي الجميع؛ لأن مثل هذا يصل إلى الناس وقد انفتح الأمر في الزمن المتأخر, فأصبحت الفضائيات تبث للعامة وللخاصة بجميع اللغات، لهذا نقول: نحن مكلفون بإقامة الحجة وأما إفهامها فهي إلى من تلقى الحجة, شريطة أن نقيمها كما أراد الله سبحانه وتعالى, فلا يقيمها الإنسان بعجل ولا باختصار ولا باجتزاء, ولا يأتي بها مرة في حال انشغال الإنسان بل ينوع؛ كما كان نوح يأتيهم ليلاً ونهاراً, سراً وجهاراً، ينوع في ذلك فربما كان الإنسان منصرفاً, أو منشغلاً, أو غاضباً, أو ربما في حزن, أو في هم, ولا يدري ماذا تقول, وهذا يطرأ في الناس, ولكن يكرر عليهم حتى تقوم الحجة ويغلب على الظن أنهم فهموا.

من خصائص النبي ﷺ

قال المصنف رحمه الله تعالى: [ثم ختم الرسالة والنذارة والنبوة بمحمد نبيه ﷺ, فجعله آخر المرسلين بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً].

رسول الله ﷺ جعل الله عز وجل له جملة من الخصائص، منها أنه خاتم الأنبياء والمرسلين، كما قال النبي ﷺ: (لا نبي بعدي)، وجعله الله عز وجل أيضاً رسولاً إلى الناس كافة, بخلاف الأنبياء السابقين, كل نبي يرسل إلى قومه، ولهذا يقول الله جل وعلا في كتابه العظيم: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ ﴾ [سبأ:28]، والله عز وجل أرسله إلى العالمين جميعاً، ولهذا نقول: إن من خصائص هذه الرسالة عمومها وكذلك خاتمتها، ولهذا يقول الله جل وعلا: ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران:85].

قال المصنف رحمه الله تعالى: [وأنزل عليه كتابه الحكيم، وشرح به دينه القويم، وهدى به الصراط المستقيم].

وكتاب الله سبحانه وتعالى تقدم معنا كلام الله جل وعلا, ولكن هنا الكلام المخصوص بهذه الأمة وهو القرآن، وإذا أطلقنا الكتاب فيراد به القرآن والسنة، إذا قلنا كتاب الله فيراد به القرآن والسنة، وإذا فصلنا قلنا: الكتاب والحكمة، فالكتاب يعني القرآن, والحكمة تعني السنة، والدليل على ذلك ما جاء في حديث زيد بن خالد الجهني لما جاءه رجل وقال: (يا رسول الله إن ابني كان عسيفاً على هذا، (يعني: أجيراً عنده) فزنا بامرأته, فقيل لي: على ابنك الرجم، قال: ففديت ابني بمائة من الغنم ووليدة، اقض بيننا بكتاب الله، فقال النبي ﷺ: لأقضين بينكما بكتاب الله، أما الغنم والوليدة فرد عليك، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام، اغد يا أنيس إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها).

في قول النبي ﷺ: (على ابنك جلد مائة وتغريب عام)، التغريب ليس مذكوراً في القرآن، والنبي ﷺ يقول: (لأقضين بينهم بكتاب الله), فيدخل في هذا السنة لأنها وحي، لأنها منزلة على رسول الله ﷺ كما أنزل الله عز وجل عليه القرآن، والقرآن أعظم نعمة, وأعظم ما ينبغي أن يسعى بالعمل به وامتثاله, الأفراد والجماعات، ولهذا يقول الله جل وعلا: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس:58]، فضل الله الإسلام ورحمته القرآن خير مما يجمعون من آراء الرجال, ومن كنوز الذهب والفضة وغيرها.

الإيمان باليوم الآخر

قيام الساعة

قال المصنف رحمه الله تعالى: [وأن الساعة آتية لا ريب فيها, وأن الله يبعث من يموت كما بدأهم يعودون].

الساعة آتية لا ريب فيها وهي قائمة إلى أجل لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى, والله جل وعلا جعل لها أجل, ﴿ لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ﴾ [الأعراف:187], سبحانه وتعالى, ولكن الله عز وجل جعل لها علامات وجعل لها أشراطاً، جعل لها أشراطاً كبرى وأشراطاً صغرى، وكل ذلك جاء في الوحي، ومن علاماتها وأماراتها ما لم يذكره الله سبحانه وتعالى, ولم يذكر الله عز وجل زمناً, وإنما ذكر وصفاً وتقريباً؛ كيوم الجمعة مثلاً ولكن لا يعلم في أي أسبوع أو شهر أو عام، كذلك أيضاً في ساعتها من أي زمن من هذا اليوم، ولهذا نقول: إن الله عز وجل هو الذي يجليها لوقتها سبحانه وتعالى، وجعل لها علامات وأمارات حتى يقرب الإنسان من ربه سبحانه وتعالى ويستعتب ويستزيد من الطاعة ويقلل من المخالفة.

إذهاب الحسنات للسيئات والعكس

قال المصنف رحمه الله تعالى: [وأن الله يبعث من يموت كما بدأهم يعودون وأن الله سبحانه ضاعف لعباده المؤمنين الحسنات وصفح لهم بالتوبة عن كبائر السيئات، وغفر لهم الصغائر باجتناب الكبائر، وجعل من لم يتب من الكبائر صائراً إلى مشيئته، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء:48]].

ومن رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده أن جعل الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وجعل السيئة بمثلها، وجعل الله عز وجل الحسنات تذهب السيئات، ولهذا يقول الله جل وعلا في كتابه العظيم: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾ [هود:114]، وكما أن الحسنات تذهب السيئات كذلك السيئات تمحو الحسنات، ولهذا يقول الله جل وعلا في كتابه العظيم: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات:2]، فرفع الصوت عند النبي ﷺ لغير تنقص ليس بكفر، وهو من ضعف الأدب، ليس المراد بذلك رد ولا استهزاء ولا احتقار ولا تنقص؛ لأن هذه الآية نزلت في الصحابة عليهم رضوان الله تعالى، وذلك أن بعضهم يرفع صوته على بعض والنبي ﷺ يتكلم, فجعل ذلك موجباً لإحباط العمل.

كذلك أيضاً في قول الله جل وعلا: ﴿ لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى ﴾ [البقرة:264]، وما جاء أيضاً في حديث عائشة عليها رضوان الله تعالى أنها قالت: لأم زيد بن أرقم لما تبايع بالعينة: (أخبريه أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله

ﷺ إلا أن يتوب)، ولهذا نقول: إن السيئة قد تمحو الحسنة, والحسنات تمحو السيئات، ولهذا نقول: إن بين الحسنة والسيئة مغالبة، هذه تغلب هذه وهذه تغلب تلك، ولكن محو الحسنات للسيئات أعظم من محو السيئات للحسنات؛ لأن الحسنات تضاعف، فإذا كانت حسنة واحدة تضاعفت وقويت من جهة المحو على غيرها، والسيئة تكون واحدة فلا تقوى على سيئة واحدة، ولكن نقول: إن الكبيرة تأتي على الصغيرة، والسيئات على أنواع:

النوع الأول: سيئات تتعلق بحق الإنسان بينه وربه؛ كشرب الخمر, وأيضاً ما يقع مثلاً من بعض المحرمات اللازمة في ذات الإنسان؛ مثلاً الزنا من غير إكراه من كبائر الذنوب، هذا بين العبد وبين ربه.

النوع الثاني: بين العباد فيما بينهم؛ مثل: الضرب، اللطم، اللعن، القذف, هذه حقوق الآدميين، الله عز وجل لا يغفرها لصاحبها إلا أن يتوب منها أو يتحلل من صاحبها أو القصاص، ولهذا يقول النبي ﷺ: (لتؤدن الحقوق إلى أهلها وليقتصن الله من الشاة القرناء للشاة الجماء). كما جاء في الصحيح من حديث أبي هريرة , كذلك أيضاً في قول النبي ﷺ: (من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلله منها)، ما قال فليستغفر وليتُب, قال: (فليتحلله منها من قبل أن يأتي يوم لا دينار فيه ولا درهم)، يعني: لا يوجد مقاضاة بالدنانير والدراهم وإنما بالحسنات والسيئات, كذلك أيضاً ما جاء في حديث جابر و عبد الله بن أنيس , وحديث أبي هريرة , وحديث جابر , وحديث أبي قتادة وغيرها من الأحاديث في هذا الباب.

قال: (وغفر لهم الصغائر باجتناب الكبائر, وجعل من لم يتب من الكبائر صائراً إلى مشيئة الله)، لهذا كانت الشرائع في الإسلام من جهة الأعمال الصالحة متوافرة في عمل اليوم والليلة حتى يكثر الإنسان منها، جعل الصلوات حتى تمحو السيئات، جعل الحج حتى يمحو، جعل صيام رمضان، رمضان إلى رمضان، جعل الجمع أيضاً حتى تمحو؛ لماذا؟ حتى تتغالب عجلة الحسنات على السيئات فينجو الإنسان، فأمر الله عز وجل بالإتيان بالحسنات حتى يفوز الإنسان ولا يهلك, وإذا فرط الإنسان في هذه الواجبات الكثيرة وقام بالإتيان بالسيئات غلبت سيئاته على حسناته وهلك، وكذلك فإن الله عز وجل جعل المكفرات للسيئات أكثر من المكفرات للحسنات، لهذا جعل الله عز وجل الأعمال الصالحة تكفر, وجعل التوبة والاستغفار تكفر, جعل الله عز وجل المصائب والهموم والغموم التي ترد على الإنسان كفارات أيضاً للإنسان, جعل الإنسان أيضاً دعاء غيره له رفعة وكفارة, يدعو بالغفران والتوبة يؤثر في ذلك أيضاً, لكن لو يدعو إنسان على إنسان بلحوق الإثم عليه أو نحو ذلك فهذا أمر لا يكون إلا بحق.

كذلك أيضاً حياة البرزخ, وما يأتي من فتنة الإنسان في قبره يكفر الله عز وجل عن المؤمن؛ لأنه لا يجمع للإنسان العذاب مرتين, كذلك أيضاً من عرصات وأهوال يوم القيامة, يخفف الله عز وجل بها عن عباده من ذلك؛ لأن الله عز وجل عدل سبحانه وتعالى.

اقتصار التكفير عن الشرك على التوبة

وفي قول الله جل وعلا: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء:48], لأن أعظم ذنب

يعصى به الله عز وجل هو الشرك, ولا يكفر الله عز وجل لعباده بهذه المكفرات كلها الشرك إلا بالتوبة, لا يكفره بالمصائب, ولا بالهموم, والأحزان التي ترد على الإنسان, ولا بالحسنات التي يفعلها الإنسان من الصدقة وبر الوالدين والصلاة إذا كان مشركاً؛ لأنه لا بد أن يتوب من ذلك بذاته, كذلك أيضاً فإن إحباط العمل إذا ذكر في القرآن فالأصل فيه أن موجبه الكفر إلا لقرينة صارفة في ذلك, ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر:65].

العقاب بالنار والخروج منها

قال المصنف رحمه الله تعالى: [ومن عاقبه الله بناره أخرجه منها بإيمانه، فأدخله به جنته ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه ﴾ [الزلزلة:7]، ويخرج منها بشفاعة النبي ﷺ من شفع له من أهل الكبائر من أمته].

يقول: (ومن عاقبه بناره أخرجه منها بإيمانه فأدخله بها جنته), يعني: أن الله سبحانه وتعالى قد يغفر لعباده أو لعبد من عباده ولو لم يتب إذا شاء سبحانه وتعالى شريطة أن يكون من أهل الإيمان, أما الكفار فالله عز وجل قضى ألا يغفر لهم, ولا يأذن الله عز وجل لأحد أن يشرع لأحد إذا كان المشروع له كافراً, إلا أن الله عز وجل أذن لنبيه عليه الصلاة والسلام وقبل منه شفاعته في عمه أبي طالب فخفف عنه ولم يخرج من النار, ويروى مثل هذا أيضاً في أبي لهب , وفي الخبر كلام, وإن كان معلقاً في البخاري , وهو (أنه يسقى في النار بمقدار هذه وأشار إلى أسفل إبهامه), أنه يشرب فيها، والسبب أنه أعتق مرضعة النبي ﷺ في الجاهلية, فهذا نوع تخفيف لا شفاعة إخراج.

أما المؤمن فإن الله عز وجل لا يخلد مؤمناً في النار, ومن كتب الله عز وجل عليه العذاب يعذبه سبحانه وتعالى ثم يخرجه منها لآجال يعلمها الله سبحانه وتعالى, وهو تطهير يشاءه الله عز وجل لعباده, ومنهم من يغفر له الله سبحانه وتعالى ولا يدخل النار لأسباب وحكم لا يعلمها إلا هو.

الإيمان بالجنة والنار

قال المصنف رحمه الله تعالى: [وأن الله سبحانه قد خلق الجنة فأعدها دار خلود لأوليائه، وأكرمهم فيها بالنظر إلى وجهه الكريم، وهي التي أهبط منها آدم نبيه وخليفته إلى أرضه بما سبق في سابق علمه، وخلق النار فأعدها دار خلود لمن كفر به وألحد في آياته وكتبه ورسله، وجعلهم محجوبين عن رؤيته].

والله سبحانه وتعالى قد خلق الجنة والنار, وعقيدة أهل السنة والجماعة أن النار موجودة, والجنة كذلك, وجعلها الله عز وجل وهيئها لأهلها, والله سبحانه وتعالى قدر لها أهلها كذلك, والله سبحانه وتعالى جعلها دار خلود, فمن دخل الجنة لا يخرج منها, ومن دخل النار فيخرج منها إن كان من أهل الإيمان, وإن كان من أهل الكفر فخلود ولا موت فيها, والآجال فيما يقدر الله عز وجل لأهل النار من الدخول فيها آجال لا يعلمها إلا هو سبحانه وتعالى, يضربها الله جل وعلا, يختلف الناس بعضهم عن بعض, وليس لهم أجل متحد, منهم من يعذبه الله عز وجل لأمد مقدر, ومنهم من يزيد عليه, وفي حديث آخر من

يخرج من النار إشارة إلى أن مراحل التعذيب في النار ليست واحدة, عافانا الله عز وجل وإياكم من ذلك وأدخلنا رحمته سبحانه وتعالى.

رؤية الله في اليوم الآخر

قال: (وأكرمهم فيها بالنظر إلى وجهه الكريم), والنظر إلى الله سبحانه وتعالى هو الحسنى التي ذكرها الله عز وجل في كتابه, وعقيدة أهل السنة والجماعة أنهم يثبتون الرؤية لله جل وعلا, أن يُرى الله سبحانه وتعالى, فيراه أهل الجنة, وإنما وقع الخلاف في غيرهم, هل يرون الله عز وجل ثم يحجبون عنه لتعظم في ذلك الحسرة في قلوبهم, فإن من نظر في شيء ثم مكن منه ثم منع منه أشد وقوعاً في الحسرة ممن لم يره أصلاً, وهذا من مواضع الخلاف عند أهل السنة, وعامة أهل السنة على أن الكفار لا يرون الله سبحانه وتعالى في الآخرة ويراه أهل الإيمان, والله سبحانه وتعالى ذكر رؤيته في كتابه العظيم, ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة:22-23].

وكذلك أيضاً في قول المصنف رحمه الله: (وهي التي أهبط منها آدم نبيه وخليفته إلى أرضه بما سبق في سابق علمه), وهذا دليل على أن الجنة مخلوقة, موجودة الآن, خلقها الله عز وجل وهيئها لأهل الإيمان من عباده.

قال: وخلق النار فأعدها دار خلود لمن كفر به, يعني: أن أهل الإيمان لا يخلدون في النار, ولهذا يقول النبي ﷺ: (يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان), يعني: لا يخلد في النار إلا من زال الإيمان من قلبه بالكلية.

قال: (وألحد في آياته وكتبه ورسله, وجعلهم محجوبين عن رؤيته), المراد بالإلحاد هو الميل, يلحدون, أي: يحرفون ويميلون عن منهج الحق. والمعنى: أن الله عز وجل أعد النار لمن كفر به وألحد بآياته وكتبه ورسله وجعلهم محجوبين عن رؤيته, قيل: هل الحجب في ذلك ابتداء, أي هم ابتداء محجوبون ولم يروا الله سبحانه وتعالى ولن يروه أم يرونه ثم يحجبون؟ هو على ما تقدم.

الحساب

قال المصنف رحمه الله تعالى: [وأن الله تبارك وتعالى يجيء يوم القيامة والملك صفا صفا؛ لعرض الأمم وحسابها وعقوبتها وثوابها].

والله سبحانه وتعالى يأتي يوم القيامة ويجيء سبحانه وتعالى ويقر عباده بذنوبهم, ويسألون عن كل ذنب, واختلف العلماء فيما يتاب منه؛ هل يقر عليه الإنسان إذا قبل الله توبته؟ هذا من مواضع الخلاف, ذهب جماهير العلماء من السلف إلى أن الإنسان إذا تاب من ذنب فإن الله سبحانه وتعالى لا يسأله عنه إذا قبل توبته, ومن العلماء من قال: إن الله عز وجل يسأله عنه ولكن لا يعاقبه عليه, قالوا وهذا مقتضى الإحصاء, فالله يحصي على عبده العمل, وذهب إلى هذا بعض العلماء؛ كالحسن وغيرهم, والأظهر في هذا أن الله عز وجل إذا تاب على عبده فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له, أي: أنه لا

يسأل عن ذلك, ولهذا يقول النبي ﷺ: (الإسلام يجب ما قبله, والهجرة تجب ما قبلها, والحج يجب ما قبله), يعني: يزول ولا يبقى منه شيء.

الميزان

قال المصنف رحمه الله تعالى: [وتوضع الموازين لوزن أعمال العباد، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون].

والميزان له كفتان, كفة للحسنات وكفة للسيئات, ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف:8-9], فمن ثقلت الحسنات لديه فإنه من أهل الفلاح, ومن خفت موازين حسناته فإنه من أهل الخسار, وخسرانه يكون بمقدار سيئاته, ولهذا نقول: إن العباد في أمر الميزان على أحوال:

الأول: منهم توزن حسناته وسيئاته, وهذا هم غالب المكلفين, باعتبار ورود الخطأ من الناس, يكون لهم حسنات وسيئات.

الثاني: من توزن سيئاته فقط وليس لديه حسنات, وعلى رأسهم إبليس وأتباعه من الكفرة؛ لأنه ليس لديهم حسنات, لأن الكفر يحبط ثواب العمل الصالح لو عملوه, ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر:65], إذاً أعمالهم تكون هباء منثوراً, إذاً ليس لهم إلا كفة واحدة من جهة الوزن.

الثالث: من ليس لديه إلا حسنات, ويدخل في هذا الأنبياء, ويدخل في هذا أيضاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب, ليس في هذا موازنة, هل تغلب الحسنات أو السيئات, وذلك فضل من الله عز وجل ورحمة يعطيها ويهبها الله عز وجل من يشاء من عباده, جعلني الله عز وجل وإياكم منهم.

تطاير الكتب

قال المصنف رحمه الله تعالى: [فمن أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً، ومن أوتي كتابه وراء ظهره فأولئك يصلون سعيراً].

هنا في إتيان الناس الصحائف حتى يقرون بأعمالهم, ومنهم من تمد له الصحائف مد البصر حتى ينظر ما فيها من أمور السيئات, سواء كان ناسياً أم عالماً حتى يراها ويقر عليها, يعطى الإنسان كتابه إذا كان من أهل الخير بيمينه وإذا كان من أهل الشر بشماله, وقيل إنما ذكره الله عز وجل أنه يعطى من وراء ظهره أنه يريد أنه يضع شماله وراء ظهره حتى لا يوضع الكتاب بشماله فيجد الكتاب قد وضع في شماله, قال بهذا بعض المفسرين من السلف.

الصراط

قال المصنف رحمه الله تعالى: [وأن الصراط حق يجوزه العباد بقدر أعمالهم، فناجون متفاوتون في سرعة النجاة عليه من نار جهنم، وقوم أوبقتهم فيها أعمالهم].

ونؤمن بالصراط, وأن الله عز وجل نصبه على متن جهنم, ولا بد لكل داخل إلى الجنة من وروده عليه, ولهذا يول الله جل وعلا في كتابه العظيم: ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ [مريم:71], وهذا هو تحلة القسم, أن الله عز وجل أقسم أنه لا بد لكل أحد أن يمر على جهنم, ولكن الناس يتباينون, منهم كلمح البصر, ومنهم كالبرق, ومنهم كالخيل, ومنهم من يجري, ومنهم من يمشي, ومنهم من يحبوا, ومنهم من تخطفه كلاليب جهنم فيهوي فيها, ومنهم من يهوي من أول لحظة, ومنهم من يسير ثم يهوي, وتكون سرعتهم يومئذ بقدر إيمانهم وطاعتهم وقربانهم إلى الله سبحانه وتعالى.

يقول: (فناجون متفاوتون في سرعة النجاة عليه من نار جهنم, وقوم أوبقتهم فيها أعمالهم), فمن دخلها فأوبقه عمله, ووقع في النار فبقاؤه فيها بمقدار عمله, إن كان كافراً لم يخرج منها, وإن كان من أهل الإيمان يخرجه ما بقي من إيمانه وهو الحكم بطول بقائه إن لم يتداركه الله عز وجل برحمته.

الحوض

قال المصنف رحمه الله تعالى: [والإيمان بحوض رسول الله ﷺ ترده أمته لا يظمأ من شرب منه، ويذاد عنه من بدل وغير].

من عقيدة أهل السنة والجماعة الإيمان بالحوض, وهو يكون بعد انصراف الناس من الحساب والوقوف في المحشر, وقد عطش الناس, وبعد الهول والفزع من المرور على الصراط يجعل الله عز وجل لنبيه ﷺ حوضاً يشرب منه أهل الإيمان, فمن شرب منه لا يظمأ أبداً, ومعنى لا يظمأ: أي: أن شرب أهل الجنة ليس للعطش؛ لأن العطش نقص, فيكون شرب أهل الجنة استمتاع, وأكلهم ليس لسد جوع, وإنما هو لذة, ولهذا ينتهي أمر العطش عندهم بالشرب من حوض رسول الله ﷺ, وهذا يكون بعد اجتياز جسر جهنم وقبل دخول الجنة.

تقاضي أهل الحقوق قبل دخول الجنة

وينبغي أيضاً أن نعلم أن الله عز وجل قد جعل قنطرة قبل دخول الجنة وبعد الخروج من النار لمن دخلها, يتقاضى أهل الحقوق في الدنيا حقوقهم, يقول النبي ﷺ: (يخرج المؤمنون من النار), يعني: من كتب الله عز وجل عليهم العذاب, (فيوقفون على قنطرة بين الجنة والنار, فيتقاضون حقوقاً كانت بينهم), من جهة الدماء, من جهة المال, من الدنانير والدراهم, لا بد فيها من القضاء, فكثير من الناس يتوهم أن الحقوق المالية أو التعدي على الدماء والأبدان أن هذا تكفره الكفارات للذنوب التي بين الإنسان وبين ربه, من الاستغفار والتوبة والمصائب وغير ذلك, وهذا من الأوهام والخطأ, بل لا تكفر إلا بالاستحلال أو بإعادة الحق أو بالقصاص, ولهذا النبي ﷺ عظم أمر حقوق الآدميين ولو كانت قليلة؛ لأنها مبنية على المشاحة فلا بد أن تؤخذ من الإنسان, لا يسامح أحد أحد حتى الأب ابنه, لأن كلهم يريد النجاة, لا يدري في ذلك اليوم هل ينجو بهذه الحسنة

أو لا ينجو, ولهذا رسول الله ﷺ يقول لأصحابه يريد تقريراً لهذا المعنى, يقول: (ما تعدون المفلس فيكم؟ قالوا: المفلس فينا من لا دينار له ولا متاع), لأن غالب نظرة الإنسان مادية, وهذا طبع بشري, ثم أيضاً الإفلاس كثيراً ما يستعمل للماديات, فأراد النبي ﷺ أن يبين معنى آخر, قال: (ما تعدون المفلس فيكم؟ قالوا: المفلس فينا ..), قال عليه الصلاة والسلام: (المفلس من يأتي يوم القيامة بأعمال كالجبال, ويأتي وقد ضرب هذا (انظروا إلى السيئات هل فيها شيء يتعلق بحق الله المحض أم لا) وقد ضرب هذا, ولطم هذا, وسفك دم هذا, وأخذ مال هذا, فيأخذ هذا من حسناته وهذا من حسناته, فإن لم يكن لديه حسنات أخذ من سيئاتهم فطرحت عليه ثم طرح في النار), فليس فيها شيء من حقوق الله جل وعلا، كلها حقوق آدميين, لا بد فيها من الوفاء, ولهذا لما أدرك بعض الصحابة عليهم رضوان الله تعالى هذا المعنى فزع, لأن غلبة الظن أن الذنوب واحدة, أن الله عز وجل يغفرها لعباده متى شاء, الله عز وجل يعفو إن شاء ولكنه قضى كما قضى أن لا يغفر الشرك إلا بالتوبة قضى أن حقوق الآدميين لا بد فيها من الأداء, أو القصاص يوم القيامة؛ لأن هذا كمال العدل, يقول النبي صلى الله عليه وسلم مبيناً أن هذا الأمر لعدل الله عز وجل ودقته في ذلك أنه يشمل حتى البهائم, التي لا تكلف بالعبادات, يقول عليه الصلاة والسلام: (لتؤدن الحقوق إلى أهلها, وليقتصن الله من الشاة القرناء للشاة الجماء), البهائم لا تحاسب بالنار ولا بالجنة, لكن الحقوق التي بينها يكون في ذلك قصاص ثم تكون تراباً لعدل الله سبحانه وتعالى.

جاء في البخاري معلقاً, ورواه الإمام أحمد في مسنده من حديث سعيد بن المسيب أن جابر بن عبد الله عليه رضوان الله قال: (بلغني أن أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ يحدث بحديث عن رسول الله ﷺ بالقصاص, قال: فاشتريت بعيراً فركبت إليه مسيرة شهر كامل, قال: فأتيت إليه فطرقت الباب فخرج مولاه, فقال: من عند الباب؟ فقلت: جابر , قال: ابن عبد الله ؟ قال: قلت: نعم, قال: فإذا عبد الله بن أنيس فقال لي: ما الذي جاء بك؟ قلت: بلغني أنك تحدث عن رسول الله ﷺ حديثاً في القصاص, قال: آلله ما جاء بك إلا هذا؟ قال: والله ما جاء بي إلا هذا, قال: سمعت النبي ﷺ يقول: يحشر العباد يوم القيامة حفاة عراة غرلاً, فيناديهم الله عز وجل بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب فيقول: أنا الملك, أنا الديان, لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق حتى أقصه منه حتى اللطمة), لأنه ربما لو كان لديه حق عند أحد من أهل الجنة وأخذه رجحت كفته ولم يستوجب النار, (حتى أقصه منه حتى اللطمة, ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وعليه لأحد من أهل النار حق حتى أقصه منه حتى اللطمة), يعني: ربما كانت تلك السيئة تنقصه ثم يكون من أهل النار, (قالوا: يا رسول الله, كيف وإنا نأتي الله عز وجل حفاة عراة؟ (يعني: كيف يكون القصاص ولا يوجد دنانير, يظنون الأمور مادية, لا دنانير ولا عصي ولا حديد, والقصاص يكون بالمكافأة, بالعمل) قال النبي ﷺ: بالحسنات والسيئات وإذا لم يكن لديهم حسنات أخذ من سيئاتهم فطرحت عليه ثم طرح في النار), ولهذا نقول: إن حقوق الآدميين مبنية على المشاحة, وحق الله عز وجل مبني على المسامحة, لهذا ينبغي على الإنسان أن يعلم أن حقوق الآدميين هي أولى ما ينبغي للإنسان أن يستبرئ منه بعد الشرك بالله جل وعلا وتحقيق توحيد الله سبحانه وتعالى في ذات الإنسان ولوازم ذلك.

نتوقف عند هذا القدر, والحمد لله رب العالمين.

الدرس الثالث

عقيدة أهل السنة أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية خلافاً للخوارج والمرجئة، كما أنهم لا يكفرون أحداً بذنب خلافاً للخوارج الذين يحكمون بكفر مرتكب الكبيرة، كما يعتقدون بعذاب القبر وفتنته، وأن الصحابة عدول ولا يلزم من هذا عصمتهم، وهم على مراتب، ولا يجوز القدح فيهم أو التنقص من شأنهم، ومن يسبهم أو أغلبهم فقد خرج من ملة الإسلام، ولا يشرع للمسلم المراء والجدال في الدين، وقد ورد النهي في السنة عن الأغلوطات.

زيادة الإيمان ونقصانه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين, وصلى الله وسلم وبارك على نبينا مُحَمَّد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

عقيدة أهل السنة في زيادة الإيمان ونقصانه

قال المصنف رحمه الله تعالى: [وأن الإيمان قول باللسان وإخلاص بالقلب وعمل بالجوارح، يزيد بزيادة الأعمال وينقص بنقصها، فيكون فيها النقص وبها الزيادة].

تقدم معنا الإشارة أن الإيمان قول وعمل واعتقاد, وتقدم أيضاً شرح ذلك وبيانه.

وهنا في قول المصنف عليه رحمه الله في زيادة الإيمان ونقصانه, نقول: إن الإيمان يزيد وينقص, ولكنه لا يزول إلا بالكفر, والكفر بوروده على أحد هذه الأنواع: الاعتقاد, أو القول, أو العمل.

وزيادة الإيمان ونقصانه هو معتقد أهل السنة والجماعة, على خلاف أهل البدع في ذلك, خلافاً لقول الخوارج الذين يكفرون بالكبيرة ويزيلون الإيمان بمجرد اقتراف الإنسان لها, وخلافاً للمرجئة الذين يجعلون الإيمان جزءاً واحداً, فمن آمن فإيمانه كاف, ويختلفون في ذلك في آثار ذنوبهم عليهم بعد ذلك, منهم من يفرط في آثار هذا القول, ومنهم من يُعمل آثاره, وعقيدة أهل السنة والجماعة أنهم يقولون: إن الإيمان قول وعمل واعتقاد, يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية, يقولون يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية؛ لأنه بالشرك يزول, والطاعة كلما زاد الإنسان في عملها أو قولها أو اعتقادها زاد إيمانه حتى يكتمل الإيمان, والزيادة قد دل الدليل عليها من كلام الله عز وجل وكلام رسول الله ﷺ؛ كما في قول الله جل وعلا: ﴿ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ [الكهف:13]، ﴿ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا ﴾ [الفتح:4], وكذلك في قول النبي ﷺ كما في حديث أبي سعيد الخدري , قال: (وذلك أضعف الإيمان), يعني: أن الإيمان يضعف ويقوى ويزيد وينقص, ولكنه لا يزول إلا بالكفر والشرك, وذلك لقول الله

سبحانه وتعالى: ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر:65], الذي حبط هو العمل الصالح, إذا زال كله زال كل الإيمان, فالله سبحانه وتعالى لا يبقي لصاحب الكفر عمل صالح؛ لأن الشرك يزيلها ويحبطها جميعاً, ولهذا نقول: إنه لا ينفع مع الكفر عمل صالح, وهل يضر مع الإيمان معصية؟ نعم؛ لأننا نقول: إن الكفر الأكبر شعبة واحدة, إذا تحققت فإن الكفر يتحقق بالإنسان, وإن تنوعت صوره وأحواله وأقواله, بالنسبة للإيمان أن الإيمان لا يكتمل في الإنسان إلا باجتماع شعبه, أما الكفر فبورود شعبة من شعبه يكفر الإنسان, وهذا هو الفرق بين الإيمان وبين الكفر, فالكافر يكفر بمجرد فعله لمكفر واحد كسجود لصنم, أما المؤمن فلا يكتمل إيمانه لمجرد عمله طاعة واحدة, بل لا بد أن تكتمل شعب الإيمان فيه, وتنتفي أيضاً شعب الكفر, بخلاف الكفر، فشعبة واحدة من شعب الكفر الأكبر كافية في كفر الإنسان كفراً أكبر ولا ينفعه من ذلك شيء من الأعمال الصالحة التي يعملها, ولهذا نقول: هذا هو الفرق بين مسألة الإيمان ومسألة الكفر في هذا الباب.

زيادة نقصان الإيمان العملي

وكذلك أيضاً بالنسبة لزيادة الأعمال, زيادة الأعمال تزيد ظاهراً وباطناً, وزيادتها في الباطن أقوى من زيادتها في الظاهر, فإن العمل الذي يكون في باطن الإنسان إذا عظم جعل من العمل اليسير عظيماً, وإذا استهان الإنسان بالمحرم حوله ها من ذنب صغير إلى ذنب عظيم, وإذا فعل الإنسان الذنب العظيم بوجل وخوف من الله سبحانه وتعالى حوله من ذنب عظيم إلى ذنب صغير؛ لأن عمل القلب في التعظيم والتحقير أعظم من عمل الظاهر, ولهذا يقول النبي ﷺ كما جاء في صحيح الإمام مسلم من حديث أبي هريرة وهما اللذان قال فيهما ابن شهاب : أعجب حديثين, قال النبي ﷺ في الحديث الأول: (دخلت امرأة النار في هرة حبستها, لا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض), يعني: حتى ماتت.

والحديث الثاني: (كان فيمن كان قبلكم رجل لم يعمل خيراً قط, فلما حضرته الوفاة قال لأبنائه: إن أنا مت فأحرقوني, ثم اطحنوني, ثم ذروني في الريح, فوالله لئن قدر الله علي ليعذبني عذاباً ما عذبه أحد من العالمين, فلما توفي فعل به أبنائه ما أوصاهم به, فقال الله عز وجل لجسده: كن فلاناً فكان فلان, وقال: ما حملك على هذا؟ قال: خشيتك يا رب, قال: قد غفرت لك), المرأة دخلت النار في هرة حبستها, مفهوم ذلك أنها لم تحبس آدمياً، ولم تقتل إنساناً, لأن دخول النار بالآدمي أولى وأعظم, يعني: أعظم ذنب لديها هو حبس الهرة والذي أوجب دخولها النار, ولماذا ذكر الحبس ولم يذكر القتل؟ لأن الحبس يلزم منه عدم الاكتراث؛ لأنه ليس موتاً فورياً, يغلق الباب ثم يبقى ساعات أو ربما أياماً, ولا يبالي, ويستحضر في ذهنه أنها لا تجد طعاماً ولا تجد شراباً ومع ذلك يصر على هذا العمل, الإنسان قد يصيبه فورة غضب ويقوم بالقتل, سواء لبهيمة أو غير ذلك, هذا أهون ممن يقتل بالحبس؛ لأن هذا هذا دليل على عدم اكتراث القلب وعدم استحضار هيبة وحساب الخالق سبحانه وتعالى, فعظم هذا الذنب فأوجب دخول النار.

وذاك الذي لم يعمل خيراً قط, لما كان العمل ذلك مقترناً في خاتمته بالوجل والخوف أضعف هذا العمل وأوجب التوبة والرحمة من الله سبحانه وتعالى, ولهذا نقول: إن الذنب العظيم إذا وجل منه القلب وخاف من عقاب الله سبحانه وتعالى عليه فإنه يقل أثراً على صاحبه حتى تقوى عليه أدنى الطاعات فتمحوه, ولهذا جاء في الصحيح من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه

وسلم قال: (بينما امرأة بغي من بني إسرائيل), والبغي هي التي تتاجر بالزنا, ففعلها أعظم من مجرد الزنا, (بينما كانت امرأة بغي من بني إسرائيل تمشي فرأت كلباً يلعق الثرى من العطش, فنزعت موقها (يعني: خفها) فنزلت في بئر فسقت له فاستغفرت فغفر الله عز وجل لها), هذا فيه إشارة إلى أن هذا الجرم العظيم, وهو الذنب, وهو من السبع الموبقات, غفره الله عز وجل لصاحبته بسبب عمل وهو إسقاء الكلب, وذكر الكلب مع أن اقتناء الكلب محرم من غير ما أذن الله عز وجل فيه؛ ككلب الحراسة والماشية والزراعة أو الصيد ونحو ذلك.

الله عز وجل جعل موازنة, فالحسنات تمحو السيئات, لله عز وجل سنة في ذلك, ومن رحمة الله عز وجل أن العمل إذا كان عظيماً وفعله الإنسان بوجل يختلف عن فعله من غير وجل ولا اكتراث, ولهذا ربما تكون الصغائر عند بعض العباد كبائر إذا كانوا لا يكترثون, وكلما قام داعي الذنب في نفس الإنسان اختلف عنه إذا لم يقم داعيه, ولهذا النبي ﷺ فرق بين الأشيمط الزاني وغيره, وفرق بين الملك الكذاب وغيره, وهذا دليل على أن الداعي إذا ضعف كان دليلاً على عدم مبالاة الفاعل بمعصيته لله سبحانه وتعالى, ولهذا لله عز وجل حكمة في التعامل مع ذنوب المخلوقين, لهذا نقول: إن زيادة الإيمان ونقصانه مردها إلى عمل الظاهر وعمل الباطن جميعاً ولو كان في صورته واحداً, ولهذا نقول: إن لله عز وجل حساب دقيق وحكمة في التعامل مع ذنوب المخلوقين, فهذه البغي ضعف عملها ذلك وهو عند الله عز وجل عظيم من جهة الأصل لوجلها؛ لأنها سقت الكلب واستغفرت من ذلك الذنب, إذاً هو حاضر أو ليس بحاضر؟ حاضر وإلا ما بادرت بقرن التوبة وطلبت الغفران بسقي الكلب, ولهذا النبي ﷺ جعل سقي الكلب موجباً لغفران ذلك الذنب, ولهذا نقول: إن سقي الكلب هو من الحسنات ولكن البغي ذنب أعظم من ذلك, ولكن لما كان القلب وجلاً ضعف ذلك الذنب حتى قوي عليه ذلك العمل, وهذا كما أنه في مسألة المقاومة للسيئات كذلك أيضاً بالنسبة للحسنات مع السيئات.

تلازم الاعتقاد والقول والعمل في ثبوت الإيمان

قال المصنف رحمه الله تعالى: [ولا يكمل قول الإيمان إلا بالعمل].

قال: (لا يكمل قول الإيمان إلا بالعمل) تقدم معنا أن الإيمان: قول وعمل واعتقاد, كلام المصنف يحتمل أن يكون الإيمان مكملا للقول ويحتمل أن يكون منفردا عنه، والعبارة الدقيقة أن نقول: إن الاعتقاد لا يصح إلا بالقول والعمل, والقول لا يصح إلا بالاعتقاد والعمل, والعمل لا يصح إلا بالقول والاعتقاد, أي أنه لا بد من وجود هذه الثلاثة, وربما بعض العلماء يتجوز بأمثال هذه العبارات.

شروط قبول العمل

قال المصنف رحمه الله تعالى: [ولا قول وعمل إلا بنية, ولا قول وعمل ونية إلا بموافقة السنة, وأنه لا يكفر أحد بذنب من أهل القبلة].

لا بد في قبول الأعمال من أمرين:

الأمر الأول: الإخلاص لله جل وعلا, أن يراد بذلك وجه الله.

الثاني: أن يكون العمل موافقاً لسنة النبي ﷺ.

فمن عمل عملاً من الطاعات وخالف بقلبه الإخلاص فراءى أو سَمَّع فهذا لم يكن مخلصاً, فلا يقبل حينئذ العمل, ومن أخلص لله عز وجل وعبد الله بغير ما شرع, من أمور البدع والمحدثات وغير ذلك لا يقبل منه عمله, لهذا نقول: إن الإنسان لا يقبل منه العمل الصالح حتى يكون خالصاً, ولا يقبل منه الإخلاص والعمل حتى يكون العمل موافقاً, كما أن القلب يكون مخلصاً لله سبحانه وتعالى، فإرادة الخير وحسن المقصد لا يكفي لحسن العمل وصلاحه, ولهذا ذكر الله عز وجل بعض أهل الشرك ووصفهم بالأخسرين أعمالاً؛ لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً, ويقول عبد الله بن مسعود عليه رضوان الله تعالى: كم من مريد للخير .. يعني يريد إرادة قلبية لكن لا يصيبه بقول وعمل, وقد جاء عن عبد الله بن مسعود عليه رضوان الله تعالى أنه دخل مسجد الكوفة, وفيه أقوام حلق, وفي وسطهم رجل وفي أيديهم حصى ويقول: سبحوا مائة, فيسبحون مائة, هللوا مائة, فيهللون مائة, فقال عبد الله بن مسعود عليه رضوان الله تعالى: عدوا سيئاتكم وأنا ضامن أن لا ينقص من حسناتكم شيئاً, قالوا: ما أردنا إلا خيراً, قال عبد الله بن مسعود : كم من مريد للخير لم يصبه, أو لم يدركه, ويحكم يا أمة مُحَمَّد هذه ثياب النبي ﷺ لم تبلى، وهذه أنيته لم تكسر، وهؤلاء أصحابه متوافرون، أما إنكم على ملة هي أهدى من ملة مُحَمَّد أو أنكم مفتتحوا باب ضلالة، عاتبهم وعنفهم؛ لأنهم ما وافقوا سنة النبي ﷺ، ورسول الله ﷺ يقول: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)، وحذر من البدعة، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة كما رواه أحمد وأهل السنن من حديث العرباض وغيره وحذر الله عز وجل من البدع في قوله: ﴿ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ [الأنعام:153]، والبدعة أحب إلى إبليس من المعصية؛ لأن المعصية يفعلها الإنسان وهو مقر بحرمتها وإذا زال موجبها عاد إلى الله، وإذا ضعف داعيها أقلع، أما البدعة فليس لها ما يقنعها إلا زوال القناعة بها، ولهذا يروى في الخبر عن رسول الله ﷺ من طرق متعددة من حديث عبد الله بن عمر وغيره، أن النبي ﷺ قال: (لا يقبل الله لصاحب بدعة توبة)، سئل الإمام أحمد عليه رحمة الله عن هذا المعنى قال: لا يوفق إلى التوبة، يعني: قلما يتوب المبتدع أما العصاة فما من أحد من الناس إلا ويعصي اليوم ويتوب غداً؛ لماذا؟ لأنه فعل هذا الجرم لنزوة ثم يتوب، ولهذا الإنسان يعصي الله عز وجل فإذا كبر قلل من المعاصي لضعف دواعيها، قلل من الظلم، قلل من الشهوات ونحو ذلك؛ لضعف هذا الداعي، أما المبتدع عكس ذلك إذا كبر يستمسك بالبدعة؛ لأنه يرجو فيها أجراً فإذا قرب ثبت عليها، وهذا هو الفرق بين البدعة والمعصية من جهة العظم والتغليب.

حكم مرتكب الكبيرة

قال المصنف رحمه الله تعالى: [وأنه لا يكفر أحد بذنب من أهل القبلة].

الذنوب على مراتب: ما نص الله عز وجل على كفر فاعله وهو الشرك وهو من الذنوب أيضاً لكن غلب الاصطلاح على تسميته شركاً وعلى المعاصي والذنوب ما دون الشرك، فلا يكفر أحد أصاب ذنباً إلا الإشراك بالله سبحانه وتعالى، لأن الله عز وجل حرم على المشرك دخول الجنة، فلا يغفر الله عز وجل له الشرك إلا أن يتوب، ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء:48]، وأما قول الخوارج الذين يقولون: بأن من ارتكب كبيرة من كبائر الذنوب فقد خرج من ملة الإسلام وذلك أنهم يجعلون اللازم للمحرم كره التحريم، واللازم لترك الواجب كره الإيجاب ولكن لا يلزم من هذا، فقد يفعل الإنسان المحرم لنزوة وهو مقر بتحريم ذلك؛ كالذي يفعل الزنا أو يسرق أو يقتل، وتسأله عن حكم ذلك يقول حرام، هذا مسلم يحب لإيمانه ويكره لمعصيته، ولا ينفى عنه الإيمان ولا محبة رسول الله ﷺ، ولهذا النبي ﷺ لما أوتي برجل يشرب الخمر أكثر من مرة ولعنه أحد الصحابة عليهم رضوان الله تعالى، قال رسول الله ﷺ: (لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله)، هذا وهو مرتكب لكبيرة وأم الخبائث، إذاً: المعاصي لا تزيل الإيمان على خلاف قول الخوارج وعلى خلاف قول المعتزلة الذين لا يجعلونه كافراً ولا يجعلونه مؤمناً ويجعلونه بينهما، وإنما نقول: إن الإنسان مسلم بإسلامه وعاص وفاسق بكبيرته، وهو متوعد بالعقاب، قد يغفر الله عز وجل له وقد يعذبه سبحانه وتعالى.

حياة البرزخ

اخفاء الفقرة

قال المصنف رحمه الله تعالى: [وأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، وأرواح أهل السعادة باقية ناعمة إلى يوم يبعثون، وأرواح أهل الشقاوة معذبة إلى يوم الدين].

بيّن الله سبحانه وتعالى أن الشهداء عنده جل وعلا يرزقون، ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:169]، جعل الله عز وجل لهم حياة يختلفون عن غيرهم، أما غيرهم فالله عز وجل يقبض أرواحهم ثم تعاد إليهم في البرزخ ويسألون ثم يرجعون إلى الموت وتبقى أرواحهم بين نعيم أو عذاب بخلاف الشهداء فإنهم يموتون ثم يحيون ويبقون على ذلك، ثم الله عز وجل يحيي أجسادهم بعد ذلك كما يحيي غيره، جاء في فضائل الشهيد جملة من ذلك: ألا تأكل الأرض بدنة ونحو ذلك، فيها جملة من الأحاديث وفيها ضعف، لكن هذا ثابت في الأنبياء وليس بثابت في الشهداء ولكن بعض العلماء يجزم بهذا، قال: لاشتهاره واستفاضته.

يقول: (وأرواح أهل السعادة باقية ناعمة إلى يوم يبعثون)، تقدم معنا الكلام على مسألة الروح والنفس، وأن الإنسان له روح ونفس ونمو, وأن البهائم فيها أنفس ونمو، وأن الأشجار فيها نمو وليس فيها نفس ولا روح، وأن الجمادات لا روح ولا نفس ولا نمو فيها، ومن العلماء من يجعل للبهائم أرواحاً؛ كحال الناس، ومنهم من يجعل البهائم يقبضها ملك الموت كما يقبض أرواح بني

آدم، ويروى هذا عن عبد الله بن عباس عليه رضوان الله.

يقول: (وأرواح أهل السعادة باقية ناعمة إلى يوم يبعثون)، وذلك أن مقام الروح بالنسبة للجسد كمقام الجسد بالنسبة للقميص، فإن الروح إذا خرجت من الجسد كالجسد إذا خرج من القميص لا أثر ولا قيمة للجسد حينئذ إلا والروح قائمة فيه، ولهذا لا يؤذى المؤمن بأكل الأرض لبدنه كما لا يؤذى الجسد بأكل الأرض لقميصه، ولهذا وجود الروح هي التي يتألم بها الإنسان إذا كانت في البدن، وأشد العذاب إذا وقع على البدن مع وجود الروح فيها، ويقع العذاب أيضاً على الروح منفصلة عن الجسد كما يجد الإنسان الآلام حتى في أحلامه، يرى حلماً يتألم فيه وجسده لم يصب، يتألم ويعذب برؤيا أو ما يسمى بكابوس أو نحو ذلك مما يأتيه من الشيطان, ثم يستيقظ ويجد أن بدنه معافى والذي عذب إنما هو الروح، كذلك الله عز وجل ينزل عذابه على من شاء من أرواح عباده ممن كتب الله عز وجل عليهم العذاب، ومنهم من ينزل الله عز وجل عليه العذاب على بدنه مع روحه إلى أمد في حياة البرزخ ثم يقبض الله عز وجل روحه بعد ذلك من جسده ويبقى العذاب على الروح، ولله عز وجل مقادير وآجال وحكم في ذلك أيضاً.

فتنة وعذاب القبر

قال المصنف رحمه الله تعالى: [وأن المؤمنين يفتنون في قبورهم ويسألون، ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾ [إبراهيم:27]].

يفتن أهل الإيمان ويعذبون ونؤمن بأن عذاب القبر حق، ولهذا النبي ﷺ استعاذ من فتنة النار ومن فتنة القبر، واستعاذ النبي ﷺ من فتنة المحيا ومن فتنة الممات، وكان النبي ﷺ يستعيذ من فتنة القبر ومن فتنة النار ومن فتنة المسيح الدجال في دبر صلاته عليه الصلاة والسلام، وذلك لعظم هذا الأمر.

فتنة القبر يوقظ إليها الإنسان كهيئته اليوم في الدنيا، صح عن النبي ﷺ من حديث عبد الله أن النبي ﷺ ذكر فتان القبور فقال: (تفتنون في القبور، قالوا: نفتن وترد إلينا أرواحنا، قال: نعم، ترد إليهم أرواحكم كهيئتكم اليوم)، وعلى ذلك يتم السؤال، سؤال الله عز وجل بواسطة الملكين: من ربك؟ ومن نبيك؟ وما دينك؟ أما صاحب اليقين فيجيب، وأما المتردد والمتلكئ والذي كان على ثقة لا يدري أي جواب ينجيه فيتعتع ولا يجيب على ذلك بشيء، وصاحب الدعوى أو صاحب النفاق لا يدري اليهودية أو النصرانية، لا يدري البوذية أو العلمانية، يسأل ولا يدري ماذا يجيب، ولا يدري أي شيء ينجيه، وحينئذ يختبر صاحب اليقين عن غيره، ومثل هذه الأمور لا يجيب إلا الموقن الحق الذي جاء به رسول الله ﷺ، فإذا سئل: من ربك؟ قال: الله. من نبيك؟ قال: مُحَمَّد. ما دينك؟ قال: الإسلام.

الملائكة الحفظة

قال المصنف رحمه الله تعالى: [وأن على العباد حفظة يكتبون أعمالهم، ولا يسقط شيء من ذلك عن علم ربهم].

الله سبحانه وتعالى جعل على العباد حفظة ومن أولئك الكتبة؛ كرقيب وعتيد يكتبون على الناس أعمالهم وهذا لا يزيد في علم الله عز وجل شيئاً وعدمه لا ينقص من علم الله عز وجل وإحاطته، وإنما المراد من ذلك هو الإحصاء وإقامة الحجة على العباد لا إثبات علم لرب العباد، فالله عز وجل يعلم أحوال العباد ولا يحتاج إلى أحد من خلقه، ولكن الإنسان لأنه أوتي الجدل ليحاجج حتى يبلغ به ألا يقبل بشاهد إلا من نفسه، فيحصي الله عز وجل عليه ويشهد عليه الملائكة، ولا يقبل إلا بشاهد من نفسه ثم يستنطق الله عز وجل جوارحه فتنطق شاهدة عليه فيقول: سحقاً سحقاً، عنكن كنت أجادل، ولهذا نقول: إن الله سبحانه وتعالى إنما يحصي لعباده ليعلموا وليقطع الحجة عليهم لتمام عدله وكمال إنصافه سبحانه وتعالى، والله جل وعلا قادر على أن يلقي في النار من استحق النار من غير ظلم ومن غير كتابة ولا ميزان بعلمه اللدني سبحانه، وقادر جل وعلا أن يدخل من استحق الجنة من غير ميزان ولا كتاب ولا حساب لعلمه اللدني سبحانه وتعالى ولكن ليقيم الحجة، ويقطع على النفوس الجدال، فيدخل الجنة من شاء ويعلم لم دخل، أما الله عز وجل فيعلم ذلك من قبل ومن بعد، ويدخل النار من استحق العقاب ويعلم لماذا دخل، لأن الله عز وجل عدل، وبهذا نعلم أنه من كمال عدل الله ألا ينزل عقوبة على أحد إلا وقد أقام الحجة عليه ببيان ذنبه ولو استيقن الإنسان؛ كالقاضي والحاكم، قد يثبت لديه أن فلاناً قد فعل كذا وكذا واستوجب القتل أو استوجب الحبس واستيقن بذلك يجب عليه أن يعلمه أن الأمر إنما أقيم عليك بالجلد لأجل كذا أو بالحبس لأجل كذا أو بغير ذلك من أنواع العقوبة.

وملك الموت يقبض أرواح الناس –المؤمن والكافر– في زمن لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، لا يعلم أجله لا نبي ولا أحد من العباد ممن دونه إلا ما يجعل الله عز وجل في الناس من إحساس أو قرائن، ويجعل الله عز وجل لذلك علامات منها الأمراض والأسقام والسن، ويجعل الله عز وجل أعماراً يقرب منها أجل الإنسان؛ كالستين والسبعين كما يقول النبي ﷺ: (أعمار أمتي ما بين الستين والسبعين)، ويقول عليه الصلاة والسلام: (أعذر الله إلى رجل بلغه الستين من عمره)، يعني: اجتمعت الحجج عليه، الحجج الكونية رآها، مر عليه مدة رأى الكواكب والأبراج وحوادث الزمن فقامت عليه الحجة، سمع من الوحي ما قامت عليه الحجة، رأى من شيبته وتغيره وأحواله ما قامت عليه الحجة، أعذر الله إلى رجل بلغه الستين من عمره، وربما كذلك أيضاً من الرؤى ما يعلم الإنسان منها قرب الأجل.

رسول الله ﷺ الله عز وجل أعلمه بقرب أجله وما أعلمه الله عز وجل بساعته، فأنزل الله عز وجل إليه نعيه في قوله جل وعلا: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ [النصر:1-3]،في هذا إشارة إلى أنه ينبغي للإنسان إذا شعر بدنو أجله وقربه من الله أن يلجأ إلى التسبيح والاستغفار وينقطع، لأنه على دنو فلا يليق بمن قرب رحيله أن ينصرف وهو يرى أنه ما بينه وبين الله عز وجل إلا أيام أو ساعات، ولهذا الله سبحانه وتعالى ذكر التسبيح والاستغفار إشارة إلى دنو وقرب الأجل، وفي مسألة قبض الأرواح وآجالها ملك الموت نفسه لا يعلم إلا

حينما يؤمر.

عقيدة أهل السنة في الصحابة

خير الناس

قال المصنف رحمه الله تعالى: [وأن خير القرون الذين رأوا رسول الله ﷺ وآمنوا به، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، وأفضل الصحابة الخلفاء الراشدون المهديون؛ أبو بكر , ثم عمر , ثم عثمان , ثم عليرضي الله عنهم أجمعين، وأن لا يذكر أحد من صحابة الرسول ﷺ إلا بأحسن ذكر، والإمساك عما شجر بينهم، وأنهم أحق الناس، وأن يلتمس لهم أحسن المخارج، ويظن بهم أحسن المذاهب].

خير القرون هم القرن الأول الذين بعث فيهم النبي ﷺ كما جاء في حديث عمران بن حصينقال النبي ﷺ: (خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم)، وذكر النبي ﷺ ثلاثة قرون وأفضلها الصدر الأول وهذا فضل المجموع، وذلك أنه قد يكون في أتباع التابعين من هو أفضل من التابعين ولكن لا ينبغي لمؤمن أن يفضل أحداً على الصحابة عليهم رضوان الله تعالى مهما بلغ ديانة وعلماً لجلالة فضلهم، وعلو منزلتهم، وشرف الصحبة التي نالوها مع رسول الله ﷺ حتى من لم يجاهد ولم يغزُ مع رسول الله؛ لأن وجوده كرقم وتكثير سواد مع رسول الله ﷺ وغرس هيبة النبي ﷺ عند المشركين من أعظم المناقب له عند الله سبحانه وتعالى، ولهذا لما سئل غير واحد من العلماء كابن المبارك عن أيهما أفضل عمر بن عبد العزيز أو معاوية , قال: لغبار في أنف معاوية مع رسول الله خير من عمر بن عبد العزيز كله, إشارة إلى فضل الصحابة وأنه لا ينبغي أن يناقش في مسألة تفضيل أحد ممن جاء بعدهم عليهم, ولا يعني هذا انتقاصاً لذوات من جاء بعدهم، أما من جاء بعدهم من التابعين وأتباع التابعين فالأمر في هذا سعة، فنقول: الفضل في ذلك هو للمجموع لا لكل فرد.

مراتب الصحابة

الصحابة عليهم رضوان الله تعالى فضلهم الله عز وجل وجعلهم على مراتب:

- السابقون الأولون أفضل من غيرهم.

- ويليهم بعد ذلك من بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة.

- ويليهم بعد ذلك من غزى مع رسول الله ﷺ غزوة بدر وهم البدريون.

– ثم يليهم بعد ذلك من غزى مع رسول الله ﷺ غزوة أحد وهو الأحديون.

– ثم بعد ذلك من جاء مع رسول الله ﷺ وأسلم، فمن أسلم قبل الفتح وقاتل فهو أفضل ممن أسلم بعد الفتح وقاتل؛ لأن الإسلام والإيمان والإنفاق في زمن الشدة وقلة الناصر دليل على أن الدافع له في الإيمان أقوى من غيره

وأفضل السابقين الأولين هم العشرة المبشرون بالجنة، وأفضلهم الخلفاء الراشدون الأربعة، وأفضل الخلفاء أبو بكر , ثم عمر , ثم عثمان , ثم علي بن أبي طالب عليه رضوان الله تعالى، ولهذا يقول عبد الله بن عمر عليه رضوان الله: (كنا نفضل في زمن النبي ﷺ ثم نقول: أبو بكر ثم عمر ثم عثمان)، ويروى في رواية قال: (ثم علي بن أبي طالب)، عليه رضوان الله تعالى، ولا نقول بعصمتهم, فهم بشر يخطئون ويصيبون، ولا نتكلم ونقدح بخطأ أحد لوجوده لأنهم ليسوا من أهل العصمة كما يقول أهل الضلال من الرافضة وغيرهم، وإنما نثبت لهم مرتبة العلو على غيرهم لا مرتبة العصمة، وعلى هذا نعلم أن ثمة فرقاً بين أهل السنة وبين الرافضة الذين يثبتون العصمة للأئمة وبين أيضاً من يقعون في الصحابة عيهم رضوان الله تعالى ويذمونهم ويسقطونهم عن مرتبة الفضل.

الوقوع في الصحابة

لا شك أن من وقع في أصحاب النبي ﷺ أنه على أحوال، منها إذا وقع فيهم جميعاً أو في جمهورهم أو أغلبهم فهو كافر بالله سبحانه وتعالى, مكذب لما جاء في النصوص المستفيضة من رضوان الله عز وجل عليهم، وكذلك أيضاً في تفضيلهم، بل تفضيل من اتبعهم بإحسان، والنبي ﷺ أوصى الأمة بهم وبين أنهم أمان لها، في قوله عليه الصلاة والسلام كما جاء في الصحيح من حديث أبي موسى قال: (أصحابي أمنة لأمتي فإذا ذهبوا أتى أمتي ما يوعدون)، وكذلك أيضاً في قول النبي صلى الله عليه وسلم: (لا تسبوا أصحابي)، تحذير من الوقيعة فيهم, وليس هذا هو قول بعدم عصمتهم, بل هم يخطئون.

ما الموقف فيما شجر بينهم؟ ألا يعترض له إلا على سبيل الترجيح فيما يتعلق بأحكام الدين، إذا وقع بينهم خلاف في مسائل الفُتْيا أو الحلال والحرام نرجح ولا نمس ذواتهم, وينبغي للإنسان أن يتحلى بالأدب معهم حتى عند ورود الخلاف؛ الإنسان حينما تختصم أمه مع أبيه أو أبوه مع أمه هل يتعامل مع خلافهم بمواجهة أم بذل وانكسار؟ بذل وانكسار؛ لأنهم في مرتبة، هل يعني هذا أنهم معصومون؟ لا، لكن لماذا لا يخوض معهم ويقوم باللوم والعتاب على هذا وهذا؟ لأنهم في مرتبة أعلى، ولكن تجد الإنسان إذا نظر إلى خصومة مشابهة عند غيرهم قام بالمنازعة والترجيح واللوم والعتب؛ لأن الأدنى لا ينبغي أن يجسر على الأعلى, فإذا عرضت الخصومة بينهم يأتي إليهم بلين وتعظيم وإجلال، وما لا يليق الخوض فيه لا يخوض فيه ويمسك؛ لأنه لا يليق أن يدخل في أمثال هذه الأمور.

ومن الخلاف ما لا يتعلق في مسائل الحلال والحرام وهي أمور وقعت بينهم ثم طوي بساطها, فهي حينئذ ليست من الدين اللازم لنا الذي لا نعرف الحلال والحرام إلا بحل النزاع فيه, لهذا نترضى عن الجميع ونمسك، ولهذا كان من عقيدة السلف الصالح ألا يذكروا الخلاف الموجود عند الصحابة عليهم رضوان الله تعالى؛ لأن مثل هذا يذكي في نفوس بعض الناس الذين لا

يعظمونهم ولا يجلونهم شيئاً من التنقص أو غير ذلك؛ لأنهم ما عرفوا منزلتهم عند الله سبحانه وتعالى، إذا كان حاطب وهو من أدرك بدراً مع رسول الله ﷺ حينما أرسل مع المرأة الكتاب ليعلم كفار قريش، فقال النبي ﷺ: (دعوه فإنه شهد بدراً, ولعل الله اطلع على أهل بدر فقال: افعلوا ما شئتم)، هذه التي وقع فيها مخالفة وهي مخالفة عظيمة, مع ذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لعل الله اطلع على أهل بدر)، يعني: أنك ينبغي أن تمسك وأن تحفظ السابقة، فكيف ما دون ذلك، يعني هذا في حياة النبي ﷺ فكيف بأمر بعد وفاته عليه الصلاة والسلام يكون الطرف في هذا ليس الرسول ﷺ إنما هو طرف ند له وهو من الصحابة، ولهذا كان بعض السلف يزجر من يدخل في أمثال هذه الخصومة، يقول: هؤلاء هم في مرتبة وقعوا في خلاف فيما بينهم وما يدخلك أنت بينهم في النزاع؟ لماذا تدخل في مثل هذا النزاع؟ ولهذا ينبغي ألا يتعرض لمثل ذلك, وإذا مر عليه يمر عليه مع ترض على الجميع, وأنهم مع خلافهم وخصومتهم فيما بينهم أن أدناهم خير ممن يأتي بعدهم، وبعض الناس يظن أن مثل هذا الكلام هو ادعاء للعصمة, وهذا خطأ, فهم يخطئون، وهم بشر عليهم رضوان الله تعالى لكن المخطئ وأدناهم مرتبة خير من أعلى ممن جاء بعدهم.

طاعة أئمة المسلمين

قال المصنف رحمه الله تعالى: [والطاعة لأئمة المسلمين من ولاة أمورهم وعلمائهم، واتباع السلف الصالح واقتفاء أثرهم، والاستغفار لهم].

هنا ذكر: الطاعة لأئمة المسلمين من ولاة أمورهم وعلمائهم، الله عز وجل يقول في كتابه العظيم: ﴿ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ [النساء:59]، قال: ﴿ مِنْكُمْ ﴾ [النساء:59], أي: من المسلمين.

قال: والطاعة لأئمة المسلمين, إشارة إلى أنه لا ولاية لكافر على المسلمين ولا يلحقه ذلك الوصف؛ لأن الله عز وجل قال: ﴿ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ [النساء:59]، لا من غيرنا؛ لأن الخطاب متوجه إلى المسلمين, ثم أولي الأمر هم العلماء والأمراء، وقد جاء ذلك عن جماعة من الصحابة عليهم رضوان الله تعالى ومن المفسرين؛ كابن عباس و مجاهد بن جبر و سعيد بن جبير وغيرهم، كما رواه ابن جرير الطبري وغيره, يسمع ويطاع لإمام المسلمين في غير معصية الله، لأن النبي ﷺ يقول: (إنما الطاعة بالمعروف)، ولا يخرج على ولي أمر المسلمين إلا إذا رأى الإنسان كفراً بواحاً وهو قادر على ذلك، ولهذا نقول: إن الخروج على أئمة المسلمين محرم باتفاق المسلمين، وجاء عن بعض السلف بعض الوقائع كما جاء في قصة الحسين وكذلك أيضاً ابن الزبير من بعض حوادث الخروج, منهم من قال: إنه محمول على أنهم يكفرون, ومنهم من يقول: إنهم رأوا القدرة على ذلك من غير فتنة فانجر الناس إلى خلاف ما يريدون فلم يستطيعوا وأد ذلك, وهذا أيضاً من مسائل الاجتهاد التي وقعت فيهم عليهم رضوان الله تعالى, وعامة العلماء على خلاف ذلك، وهو أنه يُصبر على أئمة الجور ويُصلح أمره، ثم أيضاً أنه يجب على أئمة المسلمين وهم العلماء أن يصلحوا شأن الناس، وربما يبدر من الحاكم مخالفة لأمر الله سبحانه وتعالى, والمخالفة في ذلك وإصلاحها على نوعين:

النوع الأول: مخالفة تقع من الحاكم لازمة له؛ كأن يقع في خطأ في ذاته, أو يقع مثلاً في إسراف في نفسه, أو ربما أيضاً يبلغ أنه وقع في شيء من المحرمات لا يجوز لأحد أن يذكره بسوء أو أن يشيع أمره للناس, وهذا مما لا يجوز؛ لأن فيه إيغاراً لصدور الناس عليه، وقد تجاوز كثير من الناس في هذا الباب, فأخذوا يتحدثون عن عيوب الحكام وأحوالهم ما يستترون به، ولو فعلوا ما فعلوا ما دام أنه لا يظهر منهم ذلك للناس ولم يجاهروا به، بل ولو جاهروا به وجب على الإنسان أن ينصحهم في ذلك بإشفاق.

النوع الثاني: إذا وقع منهم مخالفة ودعوا الناس إليها، فإذا دعوا الناس إليها أو فعلوا مخالفة اقتدى بهم الناس وظنوها تشريعاً أو ترخيصاً لمثل هذا العمل وجب على العالم وعلى المصلح أن ينكرها علانية، كما جاء في حديث عمارة بن رؤيبة في الصحيح لما (قام بشر بن مروان على المنبر ورفع كفيه في دعائه في الخطبة قال عليه رضوان الله: قبح الله هاتين اليدين، لن يجاوز النبي ﷺ أن أشار بأصبعه), يعني: في خطبته، كذلك أيضاً في حديث أبي سعيد الخدري لما قام خليفة وخطب قبل الصلاة فقال رجل: الصلاة قبل الخطبة، فقال: أما هذا فقد أدى ما عليه، ولهذا نقول: ينبغي أن نفرق بين ما شيع من المنكر حتى لا يتبدل الدين, ويكون ذلك بلين أيضاً ورفق وحكمة من غير فتنة تقع فيه الناس ويراق لأجلها الدماء.

النهي عن المراء والجدال في الدين

قال المصنف رحمه الله تعالى: [وترك المراء والجدل في الدين، وترك كل ما أحدثه المحدثون].

(نهى النبي ﷺ عن الأغلوطات)، وهي جدال المسائل، كما جاء ذلك عن النبي ﷺ في حديث معاوية في المسند والسنن، كذلك المراء وهو: الكلام الذي لا غاية له من السفسطة والآراء التي توصل إلى غير هدى مما يوغل الصدور ويزيد في النزاع والخصومات والفتنة وتعظيم المسائل أكثر من حجمها، وينبغي للمسلمين أن يهتموا بالأولويات، أن يهتموا بالمسائل العظمى فيما يحتاج إليه الناس ثم ينزلون, ويدعوا سفاسف الأمور والخلافات الجزئيات حتى يتفق الناس على الكليات, ثم بعد ذلك يقوموا بمعالجة مشاكل أمتهم شيئاً فشيئاً, فإن الأمة لا تجتمع على الحق إلا إذا بدأت بإصلاح أصولها وكلياتها ثم نزلت إلى جزئياتها، فإن الصراع دائماً ما يكون في الجزئيات.

عافنا الله عز وجل وإياكم من ذلك، أسأل الله عز وجل لي ولكم التوفيق والسداد والهدى وأن ينفعنا بما علمنا وأن ينفعنا أيضاً بما سمعنا وأن يعلمنا ما ينفعنا سبحانه وتعالى أنه ولي ذلك والقادر عليه.